عبد المعز خطاب

الصديق والمسيح

عليهما السلام

دار الاعتصام

الصديق والمسيح

عليهما السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صفوة الله من خلقه ، دعانا لهذا فلبينا وأخرجنا من الظلمات إلى النور بإذن ربه فصلوات ربى وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد :

فمع رسول ﷺ فى القرآن الكريم نتابع ما بدأنا ، وفى الجزء السابق تناولنا عشرة من هذه السير العطرة « نوح - هود - صالح - إبراهيم - لوط - شعيب - موسى - داود - سليمان - يونس » عليهم السلام « وفى هذا الكتاب نتناول سيرتين مباركتين لرسولين كريمين هما الصديق يوسف عليه السلام ، والمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ملتزمين كعادتنا بالنص القرآنى واقفين عند حدود الله ، بعيدين عن التوغل فى الأزمنة أو الأمكنة أو الأشخاص إلا ما يسمح به النص ، هادفين أن يكون تناولنا لهاتين السيرتين مستنيراً بما قال ربنا عز وجل لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »(١) مع ربطهما بواقعنا موضحين ما ينفعنا فى شئون ديننا ودنيانا متبرئين من كل ما لحق بسير الرسل عليهم السلام من إسرائيليات وخرافات وأباطيل لا يقبلها العقل الواعى ولا الفطرة السليمة : « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً » (٢) .

عبد المعز خطاب

---

(١) سورة هود : ١٢٠ .
(٢) سورة الكهف : ١٠ .

الصديق يوسف عليه السلام

هذه أطول قصة جاءت مكتملة فى سورة واحدة على عكس بقية قصص الرسل عليهم السلام التى تأتى متفرقة بين ثنايا السور .

وتشتمل على كثير من العبر والعظات وتقوم أساساً على العقيدة الحقة ووحدانية الله تبارك وتعالى ، وتحوى صوراً شتى للطباع البشرية وخفايا النفس الإنسانية وتبرز الصراع بين قوى الخير والشر وتلقن المسلم دروساً رائعة فى الحب والعفة والعلم والحلم والأمانة والعفو عند المقدرة ومجازاة السوء بالإحسان ، والصبر على الطاعة والتجلد للمحن ، وقد جاءت سورة يوسف عليه السلام تثبيتاً لقلب النبى ﷺ وإعجازاً لكل من حدثته نفسه أن يجارى القرآن الكريم لفظاً أو معنى ، ودحضاً لشبهات أعداء الإسلام أن يكون القرآن من وضع محمد ﷺ ، ففى هذه السورة من الغيبيات مالم يعلمه المجتمع المكى الذى عاش فيه رسول الله ﷺ أربعين عاماً قبل البعثة ، ولذا وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه :

﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ (١) صادق فى أحداثه ، كامل فى توجيهاته ، حى متجدد لا يبلى مع الزمن ولا تمله الأسماع :﴿ **آلر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ (٢) نزل بلغة العرب أشرف اللغات على قلب أشرف رسول وهو محمد ﷺ فى أشرف بقاع الأرض مكة بجوار بيت الله الحرام ، ولم يكن النبى ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى على علم بأنبياء سابقين لقد عاش أمياً فى أناس أميين :

﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا**

---

(١) سورة هود : ١ .

(٢) سورة يوسف : ١ ، ٢ .

القرآن . **وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ (١) هذا القرآن صدق وحق ليس كأحاديث الناس :

﴿ **إنه لقول فصل وما هو بالهزل** ﴾ **سورة الطارق : ١٣ ، ١٤** .

إنها قصة شاب أكمل الله خَلقه وخُلقه وابتلاه بمحن كبيرة فمر بها دون أن يفقد إيمانه أو تلين عزيمته أو تهون كرامته،وكان أشد هذه المحن وقوعه تحت تأثير امرأة ذات منصب وجمال هى سيدة تغريه بمختلف المغريات وتتفنن فى غوايته لكنه يعرض عنها ويستعصم بتقواه ويتعوذ بالله ، ويفر منها وتطارده وتتربص به وتأتمر عليه لكنه يصدها فى إباء ، وتتجمع طبقة النبلاء والكبرياء لتكيد له ويرضى بالسجن مثوى يستظل فيه بظلال الله الذى يخرجه منه ليتبوأ أرفع مرتبة فى عصره وينقذ الله على يديه شعب مصر وشعوباً أخرى .

ولقد رأيت أن أسير على هدى القرآن الكريم أتتبع السياق وأعطى المواقف حقها بقدر ما يلهمنى الله الذى استمد منه الرأى والفكرة .

★ ★ ★

(١) **سورة يوسف : ٣** .

رؤيــــا يوسف ..

كان يوسف يعيش مع أبيه وإخوته فى إحدى بوادى فلسطين ويعقوب أبوه هو الذى عُرف بإسرائيل ونسب إليه الإسرائيليون وكان نبياً ورد ذكره فى المجموعة المقدسة :

﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ﴾ (١) ويقول الله :

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا ﴾ سورة مريم : ٥٨ .

وكان يعقوب متزوجاً بأكثر من واحدة ومن النص يتبين لنا أن يوسف وأخاه كانا من أم وإخوته العشرة من أم أخرى ، واختص الله يوسف ببركته وأن يكون الفرع المختار من شجرة يعقوب امتداداً للشجرة الإبراهيمية ، وكان جميل الوجه يأسر من يراه صادق الحديث عفيف النفس متجملًا بأرفع الأخلاق يميل إلى الطاعة ويلازم أباه يستمع إليه ويتلقى عنه ، وأحبه أبوه حباً ملك عليه كل جوارحه لأن يعقوب كنبى علمه الله كان يرى بعين الغيب ما يكون عليه يوسف من المكانة والشأن ، وتحقق ظنه وصدقت فراسته حينما قص عليه يوسف ذات صباح رؤيا وما يزال يتمثلها كأنها حقيقة خفق لها قلب الأب الصالح وهو يستمع إلى إبنه المبارك وهو يقصها عليه ولا تكون إلا لنبى لقد رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر وقد خروا له سجوداً كما تسجد الرعية إجلالًا وتعظيماً :

---

(١) سورة الأنعام : ٨٤ .

﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ (١) ونلاحظ أنها كواكب وليست نجوماً فالكواكب أشد إشراقاً ، وتكرار فعل (رأيت) كأنما يؤكد لأبيه ذلك وازداد يعقوب إيماناً بما دار فى ذهنه وفرح قلبه لهذه المكانة فسيكون يوسف رابع العترة كما روى البخارى وأحمد قال رسول الله ﷺ :

« الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » وسجود الكواكب والشمس والقمر مجرد انحناء وليس خضوعاً ولا عبادة ، وقد استعمل السجود فى القرآن بمعنى انقياد كل المخلوقات لإرادة الله تعالى لأنه صاحب السلطان الغيبى على المخلوقات

وخاف يعقوب على يوسف فما يزال غلاما وهو بين إخوة لا يخفى عليه حسدهم وكراهيتهم له لما يرون من تعلقه به وإفراطه فى حبه ولذا فقد طلب من يوسف أن يكتمها عنهم وأسر إليه أنه سيكون له شأن وسيتم الله عليه من نعمه التى أنعم بها على إبراهيم **﴿ قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم ﴾**(٢) لأن إخوته إذا علموا بذلك فستشتعل نار الحقد فى قلوبهم وسيتحايلون لإبعاده عن أبيه ونيله بالأذى وهم أقرب إلى الشيطان الذى سيهيىء لهم الشر ويهون عليهم المعصية ، ولذا أشار يوسف فى ختام القصة **﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ﴾** يوسف : ١٠٠ .

والرؤيا الجميلة يستحب أن يبوح بها الإنسان لمن يحب،ولذا فقد باح بها يوسف لأبيه الذى خاف عليه فطلب منه أن يخفيها عن إخوته إحساسا منه بالخطر .

---

(١) سورة يوسف : ٤ .
(٢) يوسف ٥ ، ٦ .

وثبت فى السنة أن رسول الله ﷺ قال فى الرؤيا (إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنب آخر وليتفل عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من شرها ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره) .

إذن فقد بشر يعقوب يوسف بأنه سيكون ذا شأن وسيعلمه الله تفسير الأحلام وتحليل الكلام والحكم الصادق على ما يسمع ، وقد سميت رؤيا لأنها عبارة عما يرى فى النوم ، والرؤية (بالتاء) اسم لما يقع فى اليقظة ، والرؤيا الصادقة ضرب من إدراك نفس الإنسان أحيانا لبعض الأشياء قبل وقوعها باستعداده الفطرى ، والرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام كان قبل البعثة لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، والرؤيا الصالحة قد يراها المؤمن أو يراها محب له وفى الحديث (إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له) والتأويل هو معرفة مآل الشىء ، والرؤيا قد تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد كما سنرى من رؤيا صاحبى يوسف فى السجن ورؤيا الملك ، بل وما نراه فى حياتنا العادية فكثيرا ما تتحقق رؤى نراها ، والرؤيا تعبر عن المستقبل الذى يفصل دونه حاجز الزمان والمكان .

ولابد أن فى الإنسان حاسة غيبية تستيقظ أو تقوى فى بعض الأحيان فتتغلب على حاجز الزمان والمكان فى صورة لا يعلم سرها إلا الله ولم يكشف عنها العلم بعد .

ويعقوب قصد بإتمام النعمة على آل يعقوب أن الله سيخرجهم على يد يوسف من شظف العيش فى البادية إلى النعيم فى الحضر وأن يجعل الله يوسف إماما لأنه من الذرية الصالحة لإبراهيم كما وعده الله ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين** ﴾ (١) .

---

(١) البقرة ١٢٤ .

تآمر إخـــوته ..

يشتد حب يعقوب ليوسف ، وتظهر لهفته عليه وحنوه ألبالغ مما أثار حفيظة إخوته فجر ذلك عليه ويلات ورماه فى محن متتالية فى ظاهرها الشدة وفى باطنها الخير تلوح للعقل البشرى على أنها مآس لكنها نعم الله على عبده المخلص ﴿ **لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين** ﴾[1] ونقم الإخوة على أبيهم أن يهش وجهه للابن العاطل الذى لا يقدم نفعا بينما يشيح بوجهه عن بقية الأبناء الذين يكدون ويكدحون من أجل الأسرة إنه غير منصف فى تقديرهم ﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة** ﴾ يوسف : ٨ .

أقسموا على ذلك وكأنما صار شيئا غير خفى ، وفى تعبيرهم (ليوسف وأخوه) نحس حنقهم إنه أخ ليوسف وكأنه ليس أخاهم والأب ينبغى أن يعدل بين أبنائه حتى لا يحدث ما حدث لأخوة يوسف وأن يكون قسمته بينهم عادلة ومعاملتهم متساوية أما القلب فبيد الرحمن لكن الأب عليه أن يخفى عواطفه حتى لا يسمع قولة أبناء يعقوب ﴿ **إن أبانا لفى ضلال مبين** ﴾ فى تيه من المحاباة ضل طريق العدل والمساواة وهكذا تنمو بذور الشقاق بين الإخوة غير الأشقاء ويذكى الشيطان فى قلوبهم نار الحقد والغيرة ويحولهم من أبناء رجل صالح كيعقوب إلى مجرمين يتحدثون بلسان القتلة ويتآمرون على الأخ الصغير الذى أصبحوا لا يطيقونه بينهم ويتحايلون للتخلص منه ولو بقتله ، هكذا فكر أبناء يعقوب وقرروا إزاحته من طريقهم حتى يفسح لهم مكانا فى قلب الأب المشغول عنهم فإذا ما تخلصوا من يوسف عادوا رجالا صالحين لا يفكرون فى الجريمة هكذا سوّل لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ﴿ **اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه**

---

(١) يوسف : ٧ .

أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ (١) بيتوا نية القتل وعزموا على التوبة قبل المعصية اعتقادا منهم أن التوبة تصلح ما فات ، والتوبة لا تكون قط جاهزة قبل ارتكاب الاثم وإلا أصبحت عبثا وإنما التوبة تكون من الخطيئة التى يندفع إليها الإنسان عن جهل وبدون إصرار حتى إذا تذكر عاد سريعا إلى ربه يريق دموع الندم ويستغفره ويسترحمه ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ﴾ النساء : ١٧ .

ويستيقظ ضمير أحدهم الأوسط رأيا الذى استنكر جريمة القتل أو رميه فى أرض مهجورة إن هدفهم التخلص من يوسف ويمكنهم ذلك بدون ارتكاب جريمة بشعة لا تليق بأحفاد إبراهيم إنه يشير عليهم بإلقائه فى بئر على طريق القوافل فإذا مرت به قافلة أخذته معها ورحلت بعيدا ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ يوسف : ١٠ .

إنه مجرد اقتراح حتى لا يتهموه بالتواطؤ معه والميل إلى خلاصه فيزدادوا عنادا كما أنه قصد أن يشككهم فى عزمهم على القتل ، واتفقت كلمتهم ورموه فى بئر معروفة نلمس ذلك من تعريف الجب بحيث لا يقدر على الخروج منها فأتوا أمراً عظيما من عقوق الوالد وقطيعة الرحم وعدم الرأفة بالصغير والتفريق بين أب شيخ كبير وأحب أبنائه إليه كيداً وانتقاما .

المراودة على أخذه :

لقد أجمعوا على فعلتهم واستعجلوا التنفيذ وها هم يدخلون على أبيهم والشرر يتطاير من عيونهم والحقد مرتسم على وجوههم ، طلبوا اصطحابه معهم وكشفوا عن نواياهم المنحرفة حينما تساءلوا عن عدم ائتمان أبيهم لهم وضنه بيوسف أن يذهب معهم فى خلواتهم يكتسب صحة وتجربة ويجدد نشاطه ويشاركهم لهوهم ولعبهم ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع

(١) يوسف : ٩ .

ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ (١) مما أثار شكوك يعقوب وأكد له تآمرهم على يوسف وزاده اقتناعا تأكيدهم (إنا له لناصحون) (إنا له لحافظون) يريدون إيهامه أن قلوبهم صافية، وتعجب الأب ، إن هذه أول مرة يطلبون فيها خروج يوسف معهم وتعلل الأب بعلة لم تغب عنهم فزادهم حقدا على أخيهم ثم مكن لهم الحجة التى يحتجون بها عنده بعد التخلص منه ، لقد باح لهم بسره وأظهر لهم عظيم حبه ليوسف ، إنه يقتله الحزن إذا غاب عنه ساعة ، ثم استدرك الأب وأضاف ومع ذلك فإنا أخشى أن يفترسه الذئب وأنتم لاهون بعيداً عنه ﴿ **قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون** ﴾(٢) وهو يعلم أن الذئب لا يمكن أن يقترب منه ومعه هذه العصبة الفتية ، ولكنه كان الخيط الذى بدأوا منه تنفيذ خطتهم فأعلنوا أنهم لن يغفلوا عنه واعتبروا افتراس الذئب له وهم معه وهماً وأنه لا نفع منهم إذا وقع ذلك لأنهم يكونون عندئذ جماعة ممزقة ضعيفة ﴿ **قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون** ﴾ (٣) ولم يجد الأب وسيلة إلا أن يسلمه لهم ويتركه فى عناية ربه .

الجريمة :

يفرك الإخوة أيديهم فرحا فقد ظفروا ببغيتهم وتعجلوا التخلص منه وكانوا خاطئين فقد كان أولى بهم أن يتريثوا حتى يطمئن أبوهم لهم ويخرجه معهم مرات لكن قلوبهم أعماها الحقد وتشوقت نفوسهم للانتقام ، ويرمون به فى قسوة ويطهر الله قلبه من الحقد عليهم ويوحى إليه أن اصبر فسوف تعلمهم بذلك وإن كانوا لا يشعرون لأن الحقد أعمى قلوبهم ﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ يوسف : ١٥ .

وواضح أنه كان فى سن تسمح له بالحكم على ما يجرى ووعى وحى الله ، فى سن الغلام وهى نحو الرابعة عشرة، وانتظر الاخوة حتى غاب النهار وأقبل الليل بظلامه ثم عادوا إلى أبيهم ليقدروا على مواجهته وهكذا المجرم يتخذ من الليل ستارا ليخفى مشاعره ، واللص يختار الليل

---

(١) يوسف ١١ ، ١٢ . (٢) يوسف : ١٣ . (٣) يوسف : ١٤ .

ليتمكن من السرقة، ومدمن الخمر يحب الليل ليعينه على النسيان ودخلوا فى خطوات جنائزية يذرفون دموع التماسيح ويتظاهرون بالأسى ﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾ (١) وهكذا يخشى المجرم مواجهة النور حتى لا يبان جرمه على قسمات وجهه .

ودون أن يسألهم أبوهم أسرعوا بالحديث كل منهم يشد أزر الآخر ويمده بالأكاذيب ، وكان الحديث ملتويا والقصة ملفقة ، لقد التقطوا حكاية الذئب المكشوفة وتذرعوا بها رغم أن أباهم حذرهم منه وأنهم عاهدوه على حمايته، ادعوا أنهم انشغلوا بالسباق وابتعدوا عن المكان فافترسه الذئب وكأنما الذئب كان يتربص به وينتظر غفلتهم ، وأرادوا إيهام أبيهم أن يوسف لم يشترك معهم لصغره ولأنهم أجلسوه يرعى حاجاتهم ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ﴾ (٢) ونلمس من قولهم (أكله) كذبهم أنه لم يبق منه شيئا بدل أن يقولوا .(اختطفه) ومن عادة الذئب اختطاف فريسته والابتعاد بها ليأكلها فى مكان أمين ، وحاولوا إثارة عاطفة أبيهم باتهامه أنه من طبعه ألا يصدقهم وإن كانوا صادقين وهذا دليل أيضا على جرمهم فلم يسبق لأبيهم أن كذبهم ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ (٣) .

ولعل القرآن وهو يشير إلى تسابقهم إنما يلفت الأذهان إلى أهمية الرياضة التى كان يمارسها أبناء الأنبياء وعمر يقول (علموا أولادكم الرمى (٤) والسباحة) ولقد أكد كذبهم وتآمرهم هذا الدم الملطخ على قميص يوسف دم متكلف ليس بدم آدمى والقميص ليس ممزقا وليست فيه آثار أنياب ولم يعلق به بعض اللحم واعتبر الله هذا الدم كذبا بل هو الكذب بعينه يفضح ما بيتوه ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ يوسف : ١٨ .

لقد وضعوه على القميص بطريقة مضحكة فاضحة ويعقوب ذو فراسة ولذلك لم يناقشهم فيما قالوه ولا الدليل الذى قدموه وإنما فهم

(١) يوسف : ١٦ .
(٢) ، (٣) يوسف : ١٧ .
(٤) رمى السهام .

أنهم تخلصوا من أخيهم إلا أن إحساس يعقوب كأب وعلمه كنبى جعلاه يطمئن قليلا إلى نجاة ابنه واستبعد عقله أن يقدم أبناؤه على قتل أخيهم وإن كانت نفوسهم شريرة فأوضح لهم أنهم قد بيتوا النية لذلك واستهواهم الشيطان وسيطر على نفوسهم وأنه يستعين بالله على آلامه ويصبر صبر جميلا لفراق ابنه الحبيب ﴿ **قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾ (١) فكانت كلماته أشد عليهم من عقابه ، وهذه قوة نفسية لا نجدها إلا فى أمثال يعقوب ، وقد سئل رسول الله ﷺ عن الصبر الجميل فقال (صبر لا شكوى فيه) وأروع مظاهر الصبر ما كان عند المصيبة ﴿ **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ (٢) وامتدح الله الصابرين بقوله ﴿ **وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ (٣) وروى البخارى أن عائشة حينما اتهمت فى حادثة الإفك قالت (والله لا أجد لى ولكم إلا كما قال أبو يوسف (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) .

يوسف فى قصر العزيز :أنزله إخوته إلى قاع الجب بعد أن جردوه من قميصه ونستبعد أن يكونوا آذوه فالأخ الذى نفذ عنهم جريمة القتل كان به رحيما ومن الجائز أنهم انتظروا حتى أقبلت قافلة ورموه فى البئر وترقبوها حتي أخذته والبئر كانت فارغة وإلا لآذاه الماء وجاءت القافلة وتقدم رائدهم الذى يعرف مواطن الماء وأدلى دلوه فتعلق به يوسف وعقدت الدهشة لسانه حينما رأى هذا الغلام الجميل ولما تملك نفسه صاح برفقته ليروا ما يرى ﴿ **وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام** ﴾ (٤) بدل الماء ، واتفق رأيهم على بيعه عبدا والتخلص منه فى أقرب وقت مخافة أن يكتشف أمره أو أن يتبعه

---

(١) **يوسف** : ١٨

(٢) **لقمان** : ١٧ .

(٣) **البقرة** : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٤) **يوسف** : ١٩ .

أحد من ذويه أو طالبيه فهذا الجمال من أسرة جليلة وهيئته تدل على ذلك ﴿ **وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون** ﴾ (١) والحرام دائماً رخيص ولو كان سلعة من سلع تجارتهم لما فرطوا فيه بهذه السهولة ولولا الخوف الذى سيطر عليهم لباعوه بثمن كبير لكنهم باعوه بثمن قليل لا يتناسب معه ﴿ **وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين** ﴾ (٢) لم يحرصوا عليه ولم يساوموا فيه وربما خافوا الاتهام باسترقاق حر أو اغتصابه وجريمة ذلك كبيرة وفى الغالب أن أتباع العزيز كانوا يبحثون له عن غلام يشترونه وهم الذين اشتروه ممن استرقوه وأسرعوا به إلى العزيز حينما بهروا بجماله وذكائه ، وهذا يعطينا لفتة أن الرق كان شائعا فى مصر ، وأحبه العزيز منذ رآه وفطن لنجابته وأحس بأهميته فأوصى زوجته به خيراً فلا تعامله كخادم أو عبد وإنما كولد وخاصة أنه حرم الذرية وأنس فى يوسف أن يعوضه هذا الحرمان وأن يكون له نافعا مخلصا . ﴿ **وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** ﴾ (٣) فليس الاكرام مقصوراً على شخصه وإنما الاقامة من مأكل وملبس ورعاية وتعليم وحسن توجيه ووصل يوسف إلى الأمان وانتهت المحنة الأولى وما أكثر المحن التى سيلاقيها ، خرج من الجب إلى القصر وجاء من البدو إلى الحضر .

وكان العزيز ذا فراسة كما يقول عبد الله بن مسعود (**أفرس الناس** ثلاثة عزيز مصر حين قال لامرأته أكرمى مثواه ، والمرأة التى **قالت** لأبيها ﴿ **يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾ (٤) ـــ تعنى موسى ـــ وأبو بكر الصديق حين **استخلف عمر** ابن الخطاب ، وهو يشبه فى هذا امرأة فرعون حينما احضروا **لها موسى** رضيعا وأراد فرعون ذبحه كما يذبح الذكور فعملت على إبقائه ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه**

---

(١) **يوسف** : ١٩ .
(٢) **يوسف** : ٢٠ .
(٣) **يوسف** : ٢١ .
(٤) **القصص** : ٢٦ .

ولدا ﴾ (١) وهكذا مكن الله ليوسف فى مصر البلد المتحضر وفى بيت العزيز أعظم بيوت مصر وفى قلب الرجل وزوجته ومن حوله وزاده الله علما ورباه فأحسن تربيته وأمده بتأويل الأحاديث كما سبق أن أشرنا ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث** ﴾ (٢) وهو رد على ما دبره إخوته الذين أرادوا أن ينزعوه من الأرض فمكنه الله فيها وزاده نعمة العلم ، وكان الله مرشده ومعلمه وراعيه يوجهه للخير ويحببه إلى الطاعة ﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (٣) لأنهم يأخذون الأمور بظواهرها .

ونما عوده وترعرع وصار شابا فتيا وتلقى من العلوم والمعارف أرقاها ودرس على أشهر أساتذة العصر بصفته ولد العزيز مثله مثل موسى الذى تربى فى قصر فرعون ، ولكن الله حماه من الفتن وضرب عليه سياجا من التقوى وجنبه الزلل وصانه من فساد البيئة وانحراف القصر خاصة وأنه عاش فى فترة بلغ الانحلال فيها مداه وعمت الفوضى وخضع السادة لسلطان النساء ﴿ **ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ (٤) علم إلهى فوق علوم البشر لا يحصل عليه إلا الربانيون وحكم فى البلد الذى عاش فيه وكلها مقدمات للنبوة فالرسالة ، ودائما كان الرسل يتلقون عن الله ويعدهم لتلقى وحيه .

★ ★ ★

---

(١) القصص : ٩ .
(٢) ، (٣) يوسف : ٢١ .
(٤) يوسف : ٢٢ .

قصـــة المراودة ..

لا نشك فى أن امرأة العزيز قد فتنت بيوسف منذ وقع نظرها عليه فقد نظر إليه العزيز بعين الوالد العطوف ونظرت هى بعين المرأة المحبة التى أسرها بجماله وحسنه ورأت فيه الشباب والرجولة ، ولا يمكن أن يكون هذا الحب قد نما بعد ذلك وإنما بدأ منذ وطئت قدماه القصر والنصوص توحى بأنها كانت فى أكمل أنوثتها وشبابها وجمالها وكان زوجها كبيرا مسنا بالنسبة لها ويوسف جاءها غلاما وظلت تراقب نموه حتى قارب العشرين وهى الفترة التى حاولت فيها المراودة لقد كانت تزداد به كل يوم هياما وشغفا ، وواضح أنها كانت أكبر فى العمر، بل بينها وبين يوسف زمن ليس بالقصير ، نلمس ذلك من قول النسوة وهن يتهكمن عليها ﴿ **امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا** ﴾ (١) وهى عبارة استنكار فليس لمن فى سنها ومركزها أن تتهالك على حب فتى بهذه الصورة .

وواضح أن يوسف لم يبتل بالمراودة فحسب وإنما عاش فترة المراهقة فى هذا الجو العاصف والبيئة المغرية والحياة الناعمة الفاجرة فتجلد واستعصم بالله وعانى من مكابحة النفس الكثير وخرج من هذه الفترة العصيبة فى حياة الشباب أطهر قلبا وأقوى إيمانا .

من هنا وصلت المرأة إلى درجة من الهوس الجنسى لم تقدر معها على الصمود لقد ألقت بكل أسلحتها محاولة إغراءه باللباس الفاضح والنظرة الماجنة والضحكة الخليعة والكلمة الناعمة بشتى المغريات تتصيد الأوقات التى يسكن فيها القصر وتهدأ العيون وتطارحه الغرام فلا تجد منه إلا إعراضا وتعففا وتحمل منها ما لا يطيقه بشر فى غفلة من الزوج المسن المشغول عنها بدنياه ومنصبه وأخيراً صارحته ودعته إليها بعد أن أحكمت

(١) يوسف : ٣٠ .

غلق الأبواب وبعد أن أخلت القصر وتزينت بأبهى زينتها وأطلقت العطور وهيأت الفراش ﴿ **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك** ﴾ (١) مراودة مكشوفة لاحياء فيها تريد أن تطفىء سعار الشهوة ، والمراودة أن تنازع غيرك الإرادة وتغريه دون ملل ومنها قول إخوة يوسف بعد ذلك ﴿ **سنراود عنه أباه** ﴾ أى سنتحايل المرة تلو المرة حتى يرضى أبونا .

فاجأته بذلك بعد أن انتهزت غيبة الزوج وأمان عودته وأخلت القصر من الخدم وأغلقت بابا دون باب من الباب الخارجى حتى باب حجرة النوم لتأمين المباغتة ولتحول بينه وبين الهروب فيخضع لأهوائها ويستسلم لنزواتها وتجردت من كل ثياب يسترها حتى يكون ذلك أدعى لهياج شهوته وفى قولها (هيت لك) نحس اللحظة الحرجة :

وقبل أن نستطرد فى تناول هذا الموقف لابد أن نشير إلى أمر هام وخطر شائع بيننا وهو ترك شاب سواء كان خادما أو طاهيا أو سائقا ينفرد بامرأة شابة يغيب عنها زوجها طويلا إن ذلك يجر الويلات ويهدم الأسر ، والرسول ﷺ نهى عن انفراد رجل بامرأة تحل له مهما كانت درجة القرابة وقد روى البخارى ومسلم عن النبى ﷺ أنه قال (إياكم والدخول على النساء) فقال رجل من الأنصار (أرأيت الحمو) (٢) قال (الحمو الموت) وقال ﷺ (لا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم ولا يدخل الرجل إلا ومعها محرم) وقال (ما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما) .

ورغم السعار الجنسى الذى شب فى جسدها فقد قابلها يوسف بما يليق به كصدّيق وابن يعقوب وحفيد الخليل إبراهيم ، استعاذ بالله أن يخون أمانة الله وعرض سيده وحرمة البيت الذى آواه وكيف يلقى الله إذا ظلم العزيز ﴿ **قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ (٣) والنص واضح ، إن رد يوسف على مراودة المرأة كان

---

(١) يوسف : ٢٣ .
(٢) الحمو قريب الزوج أو الزوجة .
(٣) يوسف : ٢٣ .

التأبى المصحوب بتذكر نعم الله والوقوف عند حدوده ولم يستجب لندائها وحينا نقف ثانية أمام المراودة نحس بخطورتها فالمرأة حتى ولو كانت ساقطة من بنات الهوى تكون دائما مطلوبة لا طالبة لكنها أمام قوة شاب مؤمن حرص على رعاية أمانة سيده ولزوم تقوى الله بينما هى خانت زوجها واعتدت على حرمات البيت وأساءت إلى ضيفها نلمس ذلك (وراودته التى هو فى بيتها) ولا يليق بالمضيف أن يهين كرامته أمام ضيفه .

واستعاذة يوسف أمضى سلاح فى هذا الموقف مثلما تعوذت مريم حينا فاجأها الملك فى محرابها ﴿ **قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾ (١) فهو أنسب لهذا الموقف ، وكادت المرأة أن تفقد رشدها فما تخيلت أن يصل الصدود إلى هذه الدرجة وما كان لها أن تترك الفرصة تفلت من يدها،وويل للمرأة إذا خلعت برقع الحياء وسيطرت عليها شهوتها إنها تحس بمهانة ، أين عزتها وهى أرفع سيدة فى مصر مكانة،وكيف لهذا الفتى أن يعبث بها على هذه الصورة وقد ألقت بكل ثقلها وأسلحتها فى المعركة فهجمت عليه كالنمرة تريد أن تضمه إلى صدرها وتروى منه غلتها وهى مازالت تتوهم أن يخضع لها وحاول هو دفعها عنه والتخلص من ذراعيها وأدار لها ظهره حتى لا يكون هناك مجال لعاطفة أو تأثر بما يرى ﴿ **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ (٢) وبرهان الله رآه يوسف منذ شب عن الطوق عصمة وحماية وتربية ولنبتعد عن مزالق الاسرائيليات،لولا هذه العصمة من الله التى يعد بها رسله لكان من الممكن أن يميل إليها إنه نور الله الذى أودع رسوله كما يقول ﴿ **قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا** ﴾ (٣) وكيف يميل يوسف والله طلب من المؤمنين الذين لم يصلوا إلى مرتبة الصديقين ولا الأنبياء أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم** ﴾ (٤) والرسول ﷺ طلب منهم مراقبة الله كأنما يتمثل لهم (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) والمؤمن

---

(١) مريم : ١٨ .
(٢) يوسف : ٢٣ .
(٣) النساء : ١٧٤ .
(٤) النور : ٣٠ .

القوى يقدر على هذه العفة فكيف بيوسف ، إن أعرابية راودها رجل عن نفسها فقالت انتظر حتى ينام الجميع فجاءها وقد سكن الحى وقال لها لقد نام الجميع ولم يبق إلا كواكب السماء فردت عليه (وأين مكوكبها) فخجل منها ورجع عنها .

والله يبين أن يوسف قد طهرت سريرته وخلا قلبه من التفكير فى المعصية ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ (١) فلم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء وإنما صرف السوء والفحشاء عنه كأنما هما شخص يطارده ذلك أن يوسف من المجموعة المباركة التى قال الله فيها ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار** ﴾ (٢) وشاهد عصمة يوسف إقرار المرأة نفسها بعد ذلك ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ (٣) واعترافها بأنها كانت المحرضة له ﴿ **الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه** ﴾ (٤) لقد حاولت ضمه إلى صدرها فأسرع إلى الباب وأفلت منها لكنها لحقت به وجذبت ثيابه من خلفه تريد إيقافه والاحتفاظ به ولكنه استطاع أن يتخلص من قبضتها وأن يفتح الباب وإذا بالعزيز أمامه فرأى منظرا عجيبا امرأته مجردة الثياب شبه عارية فى هيئة مخزية ويوسف ممزق الثياب من الخلف ﴿ **واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب** ﴾ (٥) كيف دخل لا ندرى والحقيقة كانت واضحة أدركها العزيز الذى لم يكن غافلا عن النار التى تستعر فى قلب زوجته والنظرات التى كانت تلاحق يوسف بها والمحاولات المتواصلة لاستمالته إليها وأسرعت المرأة التى خافت أن تفقد كل شىء وأراقت دموع التماسيح وأوهمت زوجها أن يوسف أراد بها شرا لم تقصد محاولة الإعتداء عليها وحددت عقابه إما سجناً خفيفاً أو عقاباً غير محدد

---

(١) يوسف : ٢٣ .
(٢) سورة ص : ٤٥ ، ٥٦ ، ٤٧ .
(٣) ، (٤) ، (٥) يوسف : ٣٢ ، ٥١ ، ٢٥ .

أرادت بذلك أن توقف غضب العزيز فقد يودى به ﴿ **قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم** ﴾ (١) عجيب أن يتبجح الجانى فيتحول إلى مجنى عليه ثم إلى قاض يصدر الحكم قبل أن تسمع أقوال الخصوم والشهود وتتضح القرائن ، ورد يوسف يدفع عن نفسه هذا الاتهام الباطل حتى لا يرتاب فيه العزيز وكان يرغب السكوت ﴿ **قال هى راودتنى عن نفسى** ﴾ (٢) ورغم تأكد العزيز من صدق يوسف إلا أنه أراد أن يلزمها الحجة ، وضعفه مما يدهش له إنه صنف من هذه الطبقة التى فقدت الغيرة والحمية،واستدعى حكماً من أهلها لا من أهله ليكون أدعى إلى اطمئنانها وحكم الشاهد حكما عادلا إن كانت ثياب يوسف ممزقة من الأمام فهو كاذب لأنها أرادت أن تدفعه عنها وهو مندفع نحوها وإن كانت الثياب ممزقة من الخلف فهى الكاذبة لأنه أراد الفرار منها وحاولت جذبه إليها وكان الدليل واضحا وبانت براءة يوسف ﴿ **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم** ﴾ (٣) فوضع الشاهد أساسا للحكم العادل المقام على بينة وقرائن دون نظر إلى حسب أو نسب أو جاه ودون اعتبار لفضيحة إلى غير ذلك من الأمور التى تطمس وجه العدالة أحيانا ، وفى رخاوة يقابل العزيز الأمر ببرود تام ويتوجه إلى يوسف برجاء أن ينسى ما حدث وألا يتكلم مع أحد فيه وموعظة رقيقة إلى المرأة أن تخجل من نفسها وأن تستغفر من ذنبها فقد أخطأت فى حق نفسها وحق الرجل الذى يعتبر بمنزلة ولدها وحق الزوج المطعون فى شرفه ﴿ **يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾ (٤) لم يتحامل عليها فحينا ذكر الكيد نسبه إلى بنات جنسها وحينا ألمح إلى الخطأ خاطب به جمع الذكور لكنه أكد أن نساء هذه الطبقة لهم باع كبير فى المكائد لأنهن أكثر تفرغا من غيرهن ولا أعمال لهن .

---

(١) يوسف : ٢٥ .
(٢) يوسف : ٢٦ .
(٣) يوسف : ٢٧ ، ٢٨ .
(٤) يوسف : ٢٩ .

مجلس النسوة :

ظل يوسف فى القصر رغم هذا ربما لأن العزيز قدر فيه هذه الأخلاق وربما أبقته المرأة حتى تحاول معه مرة ثانية وتفشى الخبر وذاعت الفضيحة ولاكتها الألسن ومهما بالغت امرأة العزيز فى إخفائه فإنه تسرب إما عن طريق الخدم أو عن طريق آخر فقد صار على كل لسان وتهكم نساء الطبقة الراقية كيف لامرأة العزيز أن تصل إلى هذه المهانة ﴿ **وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين** ﴾ **يوسف : ٣٠**.

مجموعة من النساء اشتركن فى هذا الحديث وأظهرن التشفى فى المرأة المتغطرسة المتعالية عليهن وسلقنها بالعبارات الفاضحة وتعجبن كيف تظل مستمرة فى المراودة رغم الفضيحة وربما أردن التشهير بها على أنها دائما تطارد الرجال .

ومن الواضح أن امرأة العزيز رغم تهالكها على يوسف فقد كانت معرضة عمن سواه لأنه ملك قلبها فلا حاجة لها بحب أو مطاردة رجل آخر وهى كانت قادرة على أن تنال ذلك ، واستقبلت حملة النسوة بصبر الأنثى ومكرها وركزت تفكيرها فى شيء هام ليس لإظهار براءتها أو تعليل فعلتها وإنما الوصول إلى أنها تعشق أجمل الرجال من تعجز نسوة المدينة كلهن عن الصمود لنظراته أو طلعته فهى تريد إذلالهن وإشراكهن فى الكيد معها حتى ينلن من الألم الجسدى والنفسى مثلما نالت وأعدت مائدة على عادة قصور هذا العصر وهيأت لهن مجلسا مريحا ودعتهن إليها وماكن ليمتنعن عن مجلس امرأة العزيز ولرغبتهن فى الوقوف على الأمر ورؤية هذا الفتى الذى شغفت به وجلسن وسلمت كل واحدة منهن سكينا أى أنها أشرفت بنفسها على خدمتهن حتى يملن إليها. ﴿ **فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا** ﴾ (١) لقد أسرعت قبل أن تلوك المدينة كلها هذه الفضيحة ، وها نحن نرى النسوة يأكلن وهن متكئات على الارائك دون

---

(١) **يوسف : ٣١** .

تكلف كأنهن فى بيوتهن وسط جو عاطر خلاب ، واستعمال السكين فى الطعام يدل على حضارة رائعة بلغتها مصر منذ عهد قديم وقيل أن المتكأ الطعام الجامد الذى يحتاج إلى اتكاء عليه ليقطع بالسكين وفى غفلة والحديث يدور وهن منهمكات فى الطعام خرج عليهن يوسف بأمر من امرأة العزيز التى أخفته فى حجرة مجاورة ولاشك أنه كان فى أبهى زينته حتى يكون تأثيره مضاعفا وكدن يفقدن عقولهن جمال سماوى ليس لبشر طلع عليهن فجأة فنسين أنفسهن وبدون إرادة استعملن السكين وبدل تقطيع الطعام قطعن أيديهن وأطلقت كل منهن آهة وحسرة وتسابقن فى الثناء عليه ونسبنه إلى جنس نورانى علوى هو جنس الملائكة ﴿ **وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم** ﴾ (١) وفى حديث الاسراء الصحيح أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام فى السماء الثالثة وقال (فإذا هو قد أعطى شطر الحسن) ، واهتبلت المرأة الفرصة وأصبحت هى المتهكمة عليهن وهن فى ذهول والدماء تسيل من أيديهن إنهن لم يحتملن رؤيته لحظة وغبن عن شعورهن وقطعن بالسكين أيديهن ووصفنه بأنه ملك فكيف بها وقد عاشت معه فى القصر تراقب نموه وتراه فى حركاته وسكناته كلما لمحته خفق قلبها حتى حرمها النوم والراحة وزهدت فى الدنيا وصاحت ﴿ **قالت فذلكن الذى لمتننى فيه** ﴾ (٢) وما كان لو مكن عادلًا وماكنت مخطئة فى حبه ولامبالغة فى عشقه ولاملامة فى مراودته ، وعادت المرأة من جديد وقد زادها الموقف هياما وجنونا أعلنت لهن أنها دعته إليها فأبى وتحصن وأنها مصممة على أن تنال منه فإن أصر على موقفه فسيكون جزاؤه السجن والإذلال .

إنها فى حالة شاذة لا تستحى أمام النسوة وتؤكد أنها مازالت صاحبة الموقف والمسيطرة عليه وأن زوجها مازال طوع أمرها ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين** ﴾ (٣) وهى توحى إليهن أنه عانى فى الاعتصام والتحرز من دعوتها وجاهد أمام جمالها وفتنتها ولو كان غير يوسف لركع تحت

---

(١)، (٢)، (٣) **يوسف : ٣٢** .

قدميها ، وهى تتحدى هذه المرة وتؤكد إذلاله وهو إنذار أشد من سابقة يوم رآها العزيز لقد أنذرته وقتئذ بسجن غير مؤكد وعذاب لم يحدد ولكنها هنا أكدت السجن والمذلة التى تأباها النفوس .

لقد استمع يوسف إلى المرأة وهى تتحدث بهذه اللهجة أمام مثيلاتها وهو شيء يؤكد انحلال هذه الطبقة ، ولقد رأى من النسوة ما يندى له جبين الفضيلة خجلا هتكن عنهن أستارهن وكشفن أجسادهن وتكاثرن عليه كل منهن تعرض عليه نفسها دون حياء فقد اعتقدن أنه أعرض عن امرأة العزيز لأنها سيدته ، أو أنها بمنزلة أمه ، وأنه سيميل إليهن ، وله أن يختار منهن من يشاء ، ظنن أن يوسف يريد دنيا ومن طلاب الشهوة ولما رأى يوسف ذلك لجأ إلى الله يستعين به عليهن داعيا ربه أن يصرف عنه كيدهن ، فكيد النساء لا حدود له ﴿ **قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين** ﴾ (١) ، ونحب أن نشير إلى أمر هام هو أن امرأة العزيز كانت تحاول إخفاء يوسف عن النسوة مخافة إن يجذبنه إليهن بدليل أنه لما خرج عليهن انبهرن بحسنه وفى قولهن (تراود فتاها عن نفسه) أى التى تختص به دونهن ، وهنا نتساءل هل كان يوسف يكره الشهوة لأنها لا تليق به ، كلا إنه يريدها فى حلال ، والرسل تزوجوا وانجبوا ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية** ﴾ (٢)والرسول ﷺ كان يقول (حبب إلى النساء والطيب وقرة عينى فى الصلاة) وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال (وفى بضع أحدكم صدقة) قالوا يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال (أرأيتم إذا وضعها فى حرام كان عليه وزر كذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر) ويوسف العصمة لله فإذا لم يمنحها إياه ضل ولم يسلم من الميل إليهن ، لقد كانت واحدة فصدها لكنه بدون قوة من الله لا يقدر على الصمود أمام محاولات النسوة واستجاب الله له فما كان ليتركه نهبة للقلق وصرف عنه كيدهن إما أنه ابعده عن طريقهن وإما أنهن يئسن أمام عفافه وامتناعه

---

(١) يوسف : ٣٣ .

(٢) الرعد : ٢٨ .

﴿ **فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ (١) فهدأت نفسه واطمأن قلبه وهكذا يفضل المؤمن السجن على المتعة والفراش الحرام فهو فى السجن يأوى إلى ظلال الله ورحمته .

وبعد هذه الآيات البينات استحكمت حلقات الشر وتجمعت الطبقة الفاسدة للكيد له والتآمر عليه وإذا كان الرجال لم يقدروا على نسائهم فقد قدروا على يوسف واجتمعت كلمتهم على سجنه حتى تكف الألسنة وتهدأ عاصفة النسوة وربما ساعد النسوة فى ذلك كيدا لامرأة العزيز ﴿ **ثم بدالهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين** ﴾ (٢) والاشارة إلى ضمير جمع المذكر تعنى أن رجال الطبقة كبار المسئولين قد اشتركوا فى ذلك .

يوسف فى السجن : لقد رضى بحكم الله وسعد بالسجن الذى انقذه من جو المؤامرات والمراودة والفتن ودخل معه فتيان ربما زج بهما ظلما أو ربما كان أحدهما بريئا كما سيتضح لنا والآخر مجرما اجتمعوا فى زنزانة واحدة لأن الحديث بعد ذلك دار بين الثلاثة ﴿ **ودخل معه السجن فتيان** ﴾ (٣) شابان فى مثل سنه أسرهما بحديثه وأخلاقه ومعاملته وثقافته وكان محسنا إليهما متوددا معهما ولهذا فقد أسرعا إليه حينما رأى كل منهما رؤيا احس أنها ترتبط بمصيره وكم رأيا من رؤى ويفسرها يوسف فيصدق قوله لكنهما هذه المرة فى قلق إن قصورهما الفكرى يحول بينهما وبين التأويل وتقدما من يوسف وقص كل منهما عليه رؤياه الأول رأى نفسه يسقى الملك من الكأس التى كان يحملها إليه ويقدم له الشراب الذى يجيد فنونه والثانى رأى نفسه مصلوبا تحت أشعة الشمس وقد حمل على رأسه خبزا تحوم الطير عليه وتأكل منه ﴿ **قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير**

---

(١) **يوسف : ٣٤** .

(٢) **يوسف : ٣٥** .

(٣) **يوسف : ٣٦** .

منه ﴾ (١) وفى قولهما أرانى كأنما تأخذ الرؤيا بخناق كل منهما وتتمثل له يشبهان يوسف حينا كرر (رأيت) فى رؤياه ورجيا يوسف الذى عهداه محسنا صادقا أن يفسر لهما رؤيتهما ﴿ **نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين** ﴾ (٢) .

وانتهز يوسف فرصة الثقة به والاطمئنان إليه ولهفة الفتيين وسكون السجن ورأى أن يحدثهما عن عقيدتهويتضحأنه لم يفعل ذلك من قبل وأنه أحس بخروج الأول وموت الثانى فحاول أن يوجههما إلى الله وكونه سجيناً لا يمنع من الدعوة إلى الله فالداعى ما عليه إلا أن ينتهز الوقت المناسب ويتحين الأذهان المصغية إليه ليتكلم عن ربه وقبل أن يبدأ يوسف فى الحديث عن العقيدة طمأن الإثنين أنه سيفسر لهما رؤيتهما حتى لا يتضايقا أو ينشغلا بالتفكير فيهما ﴿ **قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** ﴾ (٣) وكأنما يشير إلى أنه سبق له أن أن تنبأ بالطعام وصنوفه قبل أن يصل فيتحقق ما يقول أو أنه يريد أنه سيفسر الرؤيا قبل حلول موعد الطعام أو أنهما حدثاه من قبل عن طعام رأياه فى منامهما وأول لهما الحديث إنه يتحدث عن الله لا كهانة ولا تخميناً ولا ضربا من الظن ﴿ **ذلكما مما علمنى ربى** ﴾ (٤) الذى رباه وعلمه وأعده لذلك .

وبدأ الحديث عن نفسه وهو حديث عن الله إنه أعرض عن دين قومهما لأنهم كافرون يعبدون آلهة شتى ويتركون عبادة الله ويتخيلون اليوم الآخر تخيلا عجيبا ومن لم يؤمن بالله الواحد ولم يفكر جديا فى البعث والحساب فهو كافر ﴿ **إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ **يوسف : ٣٦** .

وليس معنى ذلك أنه كان على دين المصريين ثم تحول عنه كلا وإنما هو هجر هذا الدين الباطل منذ وطئت قدماه مصر وعاش فى قصر العزيز

---

(١) ، (٢) **يوسف : ٣٥** .
(٣) **يوسف : ٣٦** .
(٤) **يوسف : ٣٦** .

ونظرة المصريين القدماء إلى الله نظرة منحرفة فهم يتخذون آلهة متعددة والحساب فى مفهومهم حياة يتمتع فيها الإنسان بما كوم معه فى قبره من متاع الدنيا ومن هنا بنوا الأهرام لتحفظ جثث الملوك وما نراه من حبوب ومجوهرات وغير ذلك ويوسف تمسك بعقيدة إبراهيم بالحنيفية بالوحدانية وما كان له أو لأحد من آل إبراهيم أن ينحرف إلى الشرك فيعبد ملكا أو بشراً أو شمسا أو قمرا إنما أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان وأداء شكر الله ﴿ **واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ (١) لأن أكثرهم مشركون وإن ادعوا الإيمان ، ويدخل إلى قلبى صاحبيه بهذا السؤال التقريرى هل الآلهة المتعددة أفضل أم الله الواحد ؟ ، وكأنما يجيب على سؤاله أن الآله الواحد خير ، نستطيع أن نؤدى واجبه أما الآلهة المتعددة فسيكون لكل منها هوى عقائدها المتباينة وهو يشير إلى آلهة المصريين (رع — آمون) وغيرها لكل منها طقوس وعبادات تختلف عن الأخرى فالعابد يكون موزع الجهد مشتت الفكر ، الإله الواحد يذل له الجميع ويتساوى عنده البشر ﴿ **يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ (٢) وهو فى قوله : (ياصاحبى السجن) إنما يمس قلبيهما ويحرك مشاعر الحب والمودة المتبادلة بينهم ولم يتحدث عن شريعة فما جاء ليبطل شريعة لأن مصر لها دستورها وقوانينها ولم يتكلم فى الأخلاقيات لأنه ليس فى موضع ملائم وإنما هاجم الشرك فى أخص مظاهره ، إن ما يعبدون هياكل جوفاء صنعوها بأيديهم وأطلقوا عليها مسميات لا يقبلها العقل الواعى وما أمر الله بها ولا نزل بها كتاب وليس لها سند من حقيقة إنها من أهواء السابقين فأخذوها عنهم ﴿ **ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من**

---

(١) يوسف : ٣٨ .

(٢) يوسف : ٣٩ .

سلطان ﴾ (١) إنه يتبع طريقة إبراهيم حينما هاجم الآباء المنحرفين ﴿ **قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين** ﴾ (٢) ألهة مجردة ضعيفة لا تدفع شرا ولا تجلب نفعا ولا تتحرك فإن كان الاله شمسا فإنها تغيب وإن كان صنما فقد أعمل فيه الإنسان آلته ويده وما يليق هذا بالاله ، إنما المستحق للعبادة هو الله وحده فلا يتوجه الإنسان إلى مخلوق وإنما للخالق الأعظم المبدع الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (٣) وهنا نتساءل هل كانت مصر على شريعة سماوية ثم انحرفت أم هى شريعة أرضية وعقيدة وضعية أراد أن يغيرها ويعيدها إلى الأصل وهو التوحيد والإيمان بالآخرة ولا نستبعد أن مصر كانت فيها عقيدة سماوية ثم ضلت وهكذا على الداعى أن يدعو لله ولا ينسى ذكره فى ضيق أو مشقة فى يسر أو عسر فى السجن أو فى القصر .

وبعد أن أعلن يوسف تصحيح العقيدة عاد إلى تفسير الرؤيا خوف الملل وردا للهفة الانتظار وقربا لموعد حلول الطعام وكان متأدبا فى تفسيره لقد أحس أن أحدهما سيطلق سراحه والآخر سيموت ، فجعل التفسير عاما لم يخص به واحدا منهما ، وفسر الرؤيا على نفس ما قالا وبنفس الألفاظ تقريبا ﴿ **يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه** ﴾ (٤) ويقصد بربه الملك ولم يكن ملك مصر وقتئذ يدعى الربوبية كفرعون موسى بل كان صالحا ، وتفسير رؤييهما كانت من مكاشفات يوسف بناء على تعبيرهما وخواطرهما وحقيقة نواياهما ومنها يستدل على أن الذى تحدث عن نجاته كان بريئاً حقا وأن الثانى كان مذنبا ، وهذا يؤكد أن للرؤيا دلائل فى الواقع وهو الموضوع الذى سنتعرض له فيما بعد ، وفى النهاية أكد لهما يوسف أن الأمر الذى أهمهما وأشكل عليهما واستفتياه فيه قد قضى حكمه أى أن أحدهما كتبت له البراءة والثانى سيعدم ﴿ **قضى الأمر**

---

(١) يوسف : ٤٠ .
(٢) الأنبياء : ٥٤ .
(٣) ، (٤) يوسف : ٤٠ ، ٤١.

الذى فيه تستفتيان ﴾ (١) ، ولاشك أن يوسف كان يدرك من منهما البرىء ومن المقضى عليه بالموت وفى غفلة منه أسر إلى الذى نجا إذا ما خرج من السجن أن يعرض مظلمته على الملك وأن يوسف لا يريد الخروج من السجن بقدر ما يريد العدل باعتبار الملك أكبر سلطة فى البلاد بعد أن خذله العزيز ، ونجا صاحبه وفى غمرة الفرحة بالعودة لمنصبه وجو القصر الزاخر بالملهيات وإقباله على سيده من جديد وكيدا من الشيطان نسى ما أوصاه به يوسف فلم يرد ذكره على ذهنه ولم يعلم الملك بأمره ومرت على ذلك سنوات **﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين ﴾** (٢) ونلمس من الفعل (ظن) أن الإنسان لا يستطيع أن يجزم بشىء إلا بعلم من الله وأنه قاصر فى ذلك فكان تأويل يوسف من باب الظن الغالب فقد يغير الله فى سننه ، وأرفض ما قاله بعض المفسرين إن الله عاقب يوسف لأنه اتجه إلى المخلوق ونسى الخالق وكيف ذلك ويوسف مازال يذكر ربه وإنما لحكمة أخفاها أبقاه فى السجن بعيداً عن المؤثرات تصفية لروحه وانطلاقا لفكره وإعداداً لسنوات القحط وتقلد المنصب الكبير ومع (فأنساه الشيطان ذكر ربه) نلمس أن السجين الذى نجا قد غفل أمام المغريات عن ذكر العقيدة وسوسة من الشيطان .

رؤيا الملك : لقد مرت سنوات يغلب عليها أنها كانت سبعا ارتجت المملكة لرؤيا رآها الملك اقضت مضجعه وأفزعته واستيقظ مذعوراً على أثرها وجمع كبار رجال الدولة لتفسيرها وإخراجه من تأثيرها عليه ، لقد رأى سبع بقرات هزيلة تنقض على سبع بقرات سمينة فتلتهمها كما يلتهم الأسد فريسته وسبع سنبلات يابسة تلتف حول سبع سنابل مخضرة فتعتصرها وصاح بالوزراء والكهنة أريد تفسيراً لرؤياى **﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا**

---

(١) يوسف ٤١ .
(٢) يوسف : ٤٢ .

تعبرون ﴾ (١)يريد أن ينقلوه إلى شاطىء الأمان بعيداً عن الذعر الذى امتلكه حتى يحس بالراحة النفسية ، وعجز الملأ وعجز الكهنة عن تفسير الرؤيا إما لأنهم جاهلون بالتفسير وإما أنهم أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا مواجهة الملك به على طريقة الحاشية فى إظهار كل ما يسر الحكام وإخفاء ما يزعجهم وتعللوا بأن رؤياه غير واضحة ولا مرتبطة وبذلك بطل مفعولها إنها خيالات نائم لا أهمية لها تشبه حزمة نبات متنوع وهى الأضغاث بعكس حزمة النبات الواحد كالقمح مثلا لها نفع ﴿ **قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين** ﴾ (٢) وهو تقرير منهم جميعاً أنهم لا يتمتعون بهذه الخاصية ولا يصلون إلى مرتبة تأويل الأحاديث ، وعندئذ تذكر الذى نجا من السجن تذكر الرجل الصالح يوسف القادر على تفسير رؤيا الملك فطلب الإسراع بإرساله إليه ﴿ **وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون** ﴾ (٣) وهو قد نسى فترة طويلة ثم تذكر فجأة بعد رؤيا الملك ، وهو يطلب أمرا بدخول السجن الذى قد فرضت عليه حراسة مشددة تتعلق بالمسجونين الخطرين ، وفى لهفة بالغة ودون تحيات وذكريات ناداه أيها الرجل الصادق فى أقواله وأفعاله والصادق فى تفسير الرؤيا والصادق فى ذكر العقيدة والصادق حين بشره بالنجاة ونقل إليه رؤيا الملك كما سمعها دون أن ينقص أو يزيد فيها وهو يعلم أن لذلك تأثيرا فى الأمر والتأويل يرتبط باللفظ ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** ﴾ (٤) فإن الناس فى لهفة والملك فى قلق فإذا فسرتها نقلتها إليهم لعلهم يعلمون حقيقتها ويعلمون صدقك وينظرون إلى قضيتك بعين العطف وقد أسرهم علمك . خاصة وأن الرؤيا مرتبطة بالملك نفسه

---

(١) يوسف : ٤٣ .
(٢) يوسف : ٤٤ .
(٣) يوسف : ٤٥ .
(٤) يوسف ٤٦ .

﴿ **لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون** ﴾ (١) وكأنما يشير إلى أنه إذا لم يجد للرؤيا تفسيرا عند يوسف فسيكون مآله السجن والعقاب الأليم ، ولم يعنف يوسف الفتى ولم يذكره بوصيته ولم يشترط الخروج قبل التأويل وإنما بخلق العالم وأمانة النبى أقبل على تفسير الرؤيا وهو تفسير عجيب إنه من نفس جنس الرؤيا ، وإذا كان قد فسر رؤيا صاحبيه فى السجن بنفس الوقائع فهو هنا يقرب من المدلول إنه تمثل ما ترمى إليه الرؤيا مأساة يلاقيها هذا الشعب ضيق يقاسيه الناس فليبادروا إلى العمل لمواجهة الماساة وإلا هلكوا وكان تفسيرها فى صيغة عمل ليعمل الشعب كله بمختلف طبقاته فى توفير الطعام وتخزينه ﴿ **قال تزرعون سبع سنين دأبا** ﴾ (٢) أى عملا متواصلا وهى التى تقابل السبع بقرات السمان وسيكون الحصاد وفيرا فلا تأكلوا منه إلا القليل والباق من الحب يبقى فى سنابله ليتحمل فترة أطول ولا يتعرض لعوامل التعرية والتلف ﴿ **فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون** ﴾ (٣) الحب لغذاء الإنسان والتبن لغذاء الحيوان وهو يوصى بالتقليل من الطعام ، وإذاً فلابد من اتخاذ إجراءات تموينية من الآن واستحداث نظام البطاقات والرقابة الصارمة حتى لا تتعرض الأمة لمجاعة قاتلة فإنه بعد السنوات المخصبة سبع سنوات مجدبة لا ينزل القطر ولا تنبت الأرض إنها سنوات رهيبة كالوحش يفغر فاه لتلتهم كل ما أنتجته سابقاتها ﴿ **ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون** ﴾ (٤) وشدتها أنه بالاضافة إلى القحط العام فهناك البطالة الخطيرة وانشغال الشعب بطلب القوت وظهور النفوس الخبيثة وتجار السوق السوداء ، وهو يشير إلى أن ما تنتجه السنوات السبع المخصبة لابد أن يكفى أربعة عشر عاما وإلا وقعت الكارثة وفى قوله ﴿ **إلا قليلا مما تحصنون** ﴾ يشير إلى بقاء بعض الحب للبذور فى العام المخصب الخامس عشر فإن السماء ستمطر وسيتوالى الخير ويسعد الناس ﴿ **ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث**

---

(١) يوسف : ٤٦ .

(٢) ، (٣) يوسف : ٤٧ .

(٤) يوسف : ٤٨ .

الناس **وفيه يعصرون** ﴾ (١) كناية عن الرزق الوفير ، ونلاحظ أن ذكر العام الأخير عام الغوث لم ترد له إشارة فى رؤيا الملك وإنما هو من مكاشفات يوسف ومن علم الله الأزلى كما بشر الساقى سابقا ﴿ **قضى الأمر الذى فيه تستفتيان** ﴾ .

تبرئة يوسف : وأسرع الساقى إلى الملك يبشره ويقص عليه ما قاله يوسف والملك ومن حوله فى دهشة إنهم أمام عقلية لا عهد لهم بها وأحسوا جميعاً بالخطر الداهم الذى يهدد المنطقة كلها ورأى الملك أن يستدعيه ليناقشه الأمر إنه ماضن رغم سجنه بالنصيحة الغالية ﴿ **وقال الملك ائتونى به** ﴾ وأسرع الساقى ثانية يبشر يوسف بخروجه من السجن لكن يوسف لم يطر فرحا وإنما رغب فى ظلمة السجن حتى تظهر براءته لقد سجن ظلماً واتهم فى شرفه ولن يخرج حتى يحقق الملك بنفسه فى قضيته ويبرئه على رءوس الاشهاد ولم يطلب التحقيق فى مراودة امرأة العزيز ولا مراودة النسوة وإنما فى أسباب تقطيع أيديهن بالسكاكين فى الحفلة المشهورة ﴿ **فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم** ﴾ (٢) ويقصد أن يجرى التحقيق وهو بعيد حتى لا يؤثر فيه وحتى يستطيع الملك انتزاع الحقيقة ولأنه لا يحتاج إلى من يدافع عنه فهو على ثقة من براءته وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ **رب أرنى كيف تحيى الموتى** ﴾ (٣) ، ويرحم الله لوطا كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى) إنها عزة نفس تحرص على الحق ، ويوسف لم يطعن فى شرف النسوة لأن ذلك ليس من صفاته ولأنه يمس الملك من قريب ولم يذكر المرأة سبب المحنة وفاء لذكرى زوجها ولأنه يقدر ظروفها ، وعجب الملك وعجل بالتحقيق وجمع النسوة وكان قد اطلع على ملف القضية وواجههن مواجهة صارمة وبينهن امرأة العزيز

---

(١) يوسف : ٤٩ .
(٢) **يوسف : ٥٠** .
(٣) **البقرة : ٢٦٠** .

يستفسر عن الحدث الجلل الذى وقع دون علمه وكيف سُجن برىء إنها ثورة الحاكم الذى يعبث رجاله دون علم منه وهو حريص على الكرامة والحق والعدالة ﴿ **قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه** ﴾ (١) أطلق السهم الأخير فى القضية وبرأ يوسف إنه يتساءل كيف حدث هذا مع نسوة كبار رجال الدولة وكيف اجتمعن على هذا المنكر وكشف عن حقيقة مجتمعه الذى دب فيه الانحلال لدرجة أن يجتمع نساء البيوتات على إغراء رجل واحد غريب عن الديار وكأنما فقد الثقة فى الرجال فطلب الحقيقة من النساء وهو يعلم أنهن بلغن درجة من القوة سيطرن بها على أزواجهن وصيرن الأمور وأمام هذا التقريع اعترفن ﴿ **قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء** ﴾ (٢) لم تبدر منه نظرة فاجرة أو عبارة خليعة أو انحرف سلوكه ولكنهن لم يجبن على سؤال الملك وإن برأن يوسف وكان أولى بهن أن يتسلحن بالشجاعة ويعترفن بالحقيقة كما فعلت امرأة العزيز التى تقدمت وأعلنت أنها هى التى راودته وأنه كان صادقا أمينا على عرض العزيز ﴿ **قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ (٣) وهى مازالت تبجله وأنها لم تسىء إلى سمعته خلال فترة سجنه بل حفظت ذكراه ﴿ **ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين** ﴾ (٤) فقد أدى بنا الكيد إلى هذا الموقف المخزى وعاقبة الكيد الخيانة والفضيحة ، وتحدثت عن النفس أنها تأمر بسوء إذا استهواها الشيطان ، إنها امرأة أحبت شابا تكبره سنا بكل خافقة فيها ومازالت تنتظر منه كلمة رضا أو خاطرة ارتياح فتتهم نفسها وتبرئه تصف نفسها بالخيانة والمراودة وتصفه بالعصمة ﴿ **وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم** ﴾ (٥) وهى تعلن أمام الملأ وزوجها أنها عفيفة والرجل الذى راودته عن نفسها استعصم

---

(١) يوسف : ٥١ .
(٢) يوسف : ٥١ .
(٣) يوسف : ٥١ .
(٤) يوسف : ٥٢ .
(٥) يوسف : ٥٣ .

فليطمئن بال الزوج كذلك ليطمئن يوسف فلم تحب ولن تحب سواه وهى تبدد تهم النسوة أنه من طبعها مطاردة الرجال والنفوس ثلاثة ، نفس آمنت بربها وخافت مقامه فهذه فى أمن الله ورحمته ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾ (١) ونفس لوامة تلوم صاحبها إذا عصى ربه واقسم الله بها ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾ (٢) ونفس ضلت فهى تأمر صاحبها بالشر وتزينه له .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

يوسف يلتقى بالملك : وتشوق الملك لرؤياه أكثر وما كان يوسف ليدعه ينتظر بعد أن أعلن الملك أنه يريده خالصا له مقربا عنده لا يكون بينهما وسيط ، لقد بانت كل الدلائل ورأى أنه فى حاجة إلى هذا الشاب الصالح العالم بتأويل الأحاديث العفيف رغم مكائد النسوة والمراودة الأبى الذى يختار السجن على القصور ما دام فيها عصمته الصبور الذى لم يتعجل الخروج من السجن حتى تثبت براءته الزاهد فى دنيا الناس والملك لا يريد أن يسبغ عليه عطفا ملكيا وإنما هو فى حاجة إليه ليدير أمور المملكة فى الوقت العصيب وهكذا نرى أن العفة والتمسك بالأخلاق والحرص على الكرامة ترفع قدر صاحبها وتخرجه من ضيق السجن إلى سعة الحياة ﴿ **وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى** ﴾ (٣) وهذا الطلب غير الأول فقد قال سابقا (ائتونى به) مجرد إحضاره ليراه أما هنا فإنه يريده صديقا ومستشارا يستنير برأيه وعلمه وخبرته وجاء يوسف وتلقاه الملك مرحبا ولم يكتف بالآيات السابقة بل حدثه وامتحنه وناقشه حتى اطمأن إلى رجاحة عقله وصفاء فكره وغزارة علمه فلا يكفى سمعة الرجل أو الشهادة الدراسية التى نالها ، بل لابد من الاختبارات الشخصية والمراقبة والمتابعة حتى يكون الحكم صحيحا ولم يوضح القرآن ما دار بينهما إنما واضح أن يوسف استولى على مشاعر الملك حتى قال فيه كما يقول القرآن ﴿ **فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ (٤)

(١) الفجر : ٣٠ .
(٢) القيامة : ٢ .
(٣)، (٤) يوسف : ٥٤ .

وصل إلى ذروة التمكين إلى قلب الملك أمن الكيد والضيق والأذى ، ولم يسجد يوسف شكرا للملك ولم تلهه مظاهر الحضارة ولم يقنع بصحبة كبير البلد وإنما عرف قدره ولم ينس مسئوليته قبل البلاد المقبلة على فترة عصيبة وقد دخلت السنون المخصبة ولابد من العمل فكل يوم يمر دون حيطة وجد وراءه مهالك فكان يوسف قويا إذ أدرك أن الموقف يتطلب رجلًا خبيراً ومن يكون أكفأ منه فتقدم من الملك وعرض عليه خدماته ﴿ **قال اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** ﴾ (١) فى سنوات الرخاء والجدب لأقيم المخازن وأسير الأمور وليست خزائن ذهب إنها مخازن الغلال فسيأتى وقت تكون فيه حفنة القمح أكثر قيمة من كيل ذهب ، ولم يكن يوسف انتهازيا ولا نفعيا وهو يرى إقبال الملك عليه إنما كان مسلما حقا يعرف واجبه ومن يطلب مثل هذا المنصب ويتحمل مسئولية إطعام شعب أربعة عشر عاما فإذا ما اهتزت موازينه ولاحت المجاعة تعرض لسخط الجماهير ونقمة الملك فهى مسئولية يهرب منها الكبراء ، وقد ذكر صفتين ضروريتين فى وزير التموين العلم والأمانة وهو قد أكد أمانته أما علمه فإنه تلقى أوسع الثقافات علاوة على علم الله الذى اختصه به ولم يشر القرآن إلى إجابة الملك فقد كانت واضحة لقد أطلق يده فى كل شيء وهل يرضى بسواه بديلا بعد ما رأى من آيات نبله وعفته وأمانته وعلمه وخلقه وإنما أشار النص إلى أن يوسف مكن له فى الأرض وصار الرجل الأول فيها المتصرف فى شئونها جزاء من الله على إحسانه وبره ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ (٢) الذين أحسنوا الإيمان والتوكل على الله والسلوك وهذا أجرهم فى الدنيا أما الآخرة فلهم فيها نعيم مقيم ﴿ **ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ (٣) والإيمان والتقوى صفتا أولياء الله الذين يأمنون الخوف من لقاء الله والحزن على ما فات ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى**

(١) يوسف : ٥٥ .
(٢) يوسف : ٥٦ .
(٣) يوسف : ٥٧ .

الآخرة ﴾ (١) ولقد روى الشيخان عن أبى هريرة (قال فقراء المهاجرين للنبى ﷺ يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم قال ما ذاك قالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما نتصدق ويعتقون ولا نعتق فقال أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثلما صنعتم قالوا بلى يا رسول الله قال تسبحون وتكبرون وتحمدون الله فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين) فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

يوسف يلتقى بإخوته : لم يتعرض النص لما قام به يوسف من إجراءات ومن الطبيعى أنه جند كل قوى الدولة لمواجهة الخطر وأعد خطة محكمة وقام بالمراقبة الصارمة وحث الشعب على العمل الدائب فكلما زاد الانتاج قل الخطر ومرت السبع المخصبة ووافت سنوات القحط وقام المصريون وهم مشهورون بفن المعمار ومتفوقون فى الهندسة يساعدونه فى إقامة التحصينات اللازمة وابتكروا من المخازن مالا يصل إليه عطب أو تلف أو يتعرض لحشرات أو فئران أو غير ذلك ومن يرى الهرم الأكبر مثلا يدهش لبراعتهم .

وعم القحط المناطق المجاورة وقاسى الناس المحنة ، وكان يوسف قد وضع نظاما دقيقا لتسجيل الناس وإحكام الرقابة على فنون الصرف حتى لا تقع السلع فى أيدى المستغلين ويتاجرون بها فى السوق السوداء وانتفت الوسطية والمحسوبية والمجاملات ونال كل فرد حقه دون جهد فقد كان باب يوسف مفتوحا لكل الناس محققا فى كل شكوى وما دام الحاكم حى الضمير فإن من حوله يساعدونه على تحقيق أهدافه ، وكانت وزارة يوسف أعظم وزارة شهدها التاريخ فى مثل هذه المحنة مما يحتاج إليه عصرنا الحديث الذى يموج بملايين الجوعى بينما الخيرات يقذف بها فى البحر والثمار والزرع تدعو طلابها فى أماكن كثيرة من العالم ولما كانت البلاد المجاورة لم تعمل حسابا للمحنة فقد أضرت بها السنون العصيبة وتعرضت لمجاعة رهيبة وسمع الناس بخير وعدل عزيزها فتوافدوا من كل

(١) يونس : ٦٣ ، ٦٤ .

صوب أفواجا وكان يوسف على استعداد لكل طارىء، فقد وضع نظاما محكماً سوى فيه بين الملك والمواطن فى النصيب ورضى الملك وخضع الكبراء لهذا العدل واختفت الموائد الممتدة المتخمة بألوان الطعام بينما سواد الشعب يموت جوعاً .

وجاء إخوة يوسف ضمن الوفود يطلبون الحب ، وكان يوسف بنفسه يستقبل الناس ويشرف على الكيل ويدقق فى الشخصيات الوافدة وعرفهم يوسف فالزمن لم يغيرهم بينما هو قد تغير فليس من المعقول أن يكون هو الغلام الذى رموه فى الجب إن هيئته ومهابته وذلتهم قد حالت بينهم وبين التفكير فى ذلك ﴿ **وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون** ﴾ (١) ألهمه الله معرفتهم ، ومن الجائز أن عمال يوسف كانوا لا يدخلون عليه إلا من يعرفون ويتحققون من شخصيته ، وأنزلهم المنزل اللائق بهم كغرباء وإخوة ، ولتكون فرصة ليسأل عن أهله ويتحسس أنباء أبيه فقد بعد بينهم العهد وعرف قصة أبيهم وإن كانوا أنكروا أنهم قذفوا بأخيهم فى البئر وكذبوا نفس الكذبة على يوسف وأراد الله أن يفضحهم على يديه ثم حدثوه عن أخ لهم من أبيهم إنه أخوه وكم يتشوق إليه وتألم لما سببه لأبيه من حزن وتعجل رؤية أخيه وهو يتخيل سوء المعاملة التى نالها منهم فهؤلاء الذين فكروا فى قتله قديما لا يتورعون فى إيذاء الأصغر نكاية وانتقاما من الأخ الذى ما زال يعقوب يتذكره وطلب منهم عند الرحيل العودة بأخيهم هذا ليتأكد من صحة أقوالهم ولينال نصيبه من الكيل ملمحا إلى مكانته كعزيز مصر وإكرامه لهم وقدرته على التوصية بهم فى الكيل وهو أقصى ما يتمناه مواطن فى هذا الوقت ﴿ **فلما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين** ﴾ (٢) فهو بنفسه الذى يكيل للناس ولا تخرج حبة قمح إلا بإذنه وقد أبطل أن يشترى الإنسان بماله كما شاء فيطغى الأغنياء ويضيع الفقراء وإنما لكل فرد حمولة بعير فى المدة الزمنية المقررة وهددهم بأنهم إذا لم يعودوا بأخيهم فلن ينالوا كيلا ولا

---

(١) يوسف : ٥٨ .

(٢) يوسف : ٥٩ .

يريد منهم أن يقربوا من بلاده لأنهم يكونون كاذبين فيما زعموه ﴿ **فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون** ﴾ (١) وعاهدوه على أن يعملوا جاهدين لاقناع أبيهم باصطحابه معهم وإن كان هذا يتطلب مشقة لأن الأب الحزين منذ فارقه يوسف لا يسمح لابنه الأصغر بالغيبة عنه نلمس ذلك من قولهم ﴿ **قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون** ﴾ يوسف : ٦١ .

ولفظ نراود يدل على الالحاح المستمر ، وفى غفلة منهم أمر غلمانه أن يدسوا بضاعتهم التى يشترون بها فى رحالهم وكانت نقودا وجلوداً وما شابه ذلك مما يتعامل به البدو فإذا اكتشفوها بعد عودتهم كان ذلك أدعى إلى رجوعهم لردها فطباعهم تأبى السكوت عليها ﴿ **وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون** ﴾ (٢) إنه رجاء أن يعودوا بأخيهم بعد أن عاهدوه ، وأمام لفظة (فتيانه) نحس أن رجاله كانوا أصحاء أقوياء شباب رباهم ودربهم وعلمهم فان الأمر لا يتطلب رخاوة ولا استهتارا ودخل الأخوة على أبيهم وبادروه بأن الكيل منع منهم وأن العزيز لن يسمح لهم بدخول بلاده إلا إذا كان معهم أخوهم حتى يبان صدقهم ﴿ **فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون** ﴾ (٣) نفس العهد الذى أخذوه على أنفسهم فى حادثة يوسف ، ويبدو أنهم فاجأوا الأب بذلك قبل أن يفتحوا رحالهم أو أن كيل الأخ منع فعلا عنهم ، وأثار كلامهم دفائن يعقوب وهيج ذكرياته إنه يستعيد الماضى يوم وعدوه وأخلفوا وأخلوا بشروطهم وكذبوا وتخلصوا من يوسف فليترك ابنه لله ولا داعى لوعودهم الخادعة .

﴿ **قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين** ﴾ يوسف : ٦٤ .

وأغاظ الإخوة أن يظل وفيا لذكرى يوسف وكيف لا ينشغل بأمور الأسرة وما يتهددها من ضرر ولما فتحوا المتاع وعثروا على النقود اتخذوها ذريعة وصاحوا بأبيهم لقد وجدنا بغيتنا وكسبنا عطف العزيز

---

(١) يوسف : ٦٠ .

(٢) يوسف : ٦٢ .　　(٣) يوسف : ٦٣ .

﴿ **ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى** ﴾ (١) لقد حصلنا على الغلال وردت إلينا الأموال وإذا حافظنا على وعدنا بأخينا فسنكسب حمل بعير وهو أمر يسير على العزيز ، وربما قصدوا بذكر النقود أن ردها ربما كان إنذارا بالمقاطعة وتكاتفوا على الأب يخوفونه حتى إن ﴿ **هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير** ﴾ (٢) وأخذ الأب عليهم العهد أن يحافظوا على أخيهم ولا يسلموه حتى آخر رجل منهم فعاهدوه واشهد الله على ذلك وهو يحس أنه سيفقد ابنه ولكنه أراد أن يوقظ فى قلوبهم الإيمان والوفاء ﴿ **قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتاتننى به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل** ﴾ (٣) إنه أراد أن يكون احتجازه أو فقده بغير رغبتهم حتى لا يتكرر منهم نفس العمل السيىء وأوصاهم أن يدخلوا على العزيز متفرقين وأضاف أنه لا يملك لهم من الله شيئا إنما هى خطرات أب ونصيحة والد ﴿ **قال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** ﴾ (٤) وربما قصد أنه إذا نزل بجماعة منهم سوء نجا الباقون ، وربما خاف عليهم الحسد وهذا جائز وإن كان هذا نستبعده باعتبار أنهم سبق لهم الدخول على العزيز، وربما دار فى ذهنه أن العزيز هو ابنه يوسف فما كان لكبير كهذا أن يكرم رجالا غرباء بهذه الصورة ويزيدهم الكيل ويطلب منهم العودة بأخيهم الأصغر فأراد أن يدخل الاخوة متفرقين لينقلوا إليه أحاسيسه وما انطبع على قسمات وجهه من لمحات لا ندرى سرها ولكن يعقوب نبى على علم بالغيبيات واتصال بمولاه ﴿ **ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (٥) هذا العلم الذى فسر به رؤيا يوسف وتنبأ له بمستقبل عظيم .

---

(١) يوسف : ٦٥ .
(٢) يوسف : ٦٥ .
(٣) يوسف : ٦٦ .
(٤) يوسف : ٦٧ .
(٥) يوسف : ٦٨ .

احتجاز الأخ الأصغر : ودخل الأخوة على يوسف كما نصحهم أبوهم فرحب يوسف بأخيه وضمه إليه بل نقله إلى مأواه ومنزله وكأنما أنقذه من مأساته وأسر إليه أنه أخوه يوسف الذى غاب عنهم وأنه فى أمان قد انتهى عهد الضيق والشدة والكراهية فلا يحزن لما فات من سوء معاملة إخوته ﴿ **ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون** ﴾ (١) ولا نشك فى أنه أخبره بالخطة التى سيلجأ إليها لاحتجازه حتى لا يفاجأ الأخ بذلك ولذلك لم نسمع صوته عندما اكتشف الصاع فى متاعه وحينما أعلن استرقاقه وإلا كان قد احتج ونفى عن نفسه التهمة كأخلاق أبناء يعقوب .

وجهزهم يوسف بعد أن أكرم وفادتهم ودس بنفسه كأس الملك فى متاع الأخ الصغير فعل ذلك بنفسه ولم يوكله إلى فتيانه كالمرة السابقة حتى لا ينكشف الأمر ولاشك أن الكأس كانت مطلوبة وأنها سريعا ما يكتشف فقدها ﴿ **فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه** ﴾ (٢) وتحقق ظنه وأسرع الفتيان وراء الغرباء واتهموهم بالسرقة وهى تهمة خطيرة ﴿ **ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون** ﴾ (٣) وأحس الأخوة أن التهمة موجهة إليهم لأنهم الذين نالوا عطف العزيز ولابد أن يظهروا براءتهم حتى لا يحرموا الكيل وخاصة أنهم على ثقة من أنهم أبرياء فتركوا متاعهم وعادوا سريعا إليهم وتساءلوا عما افتقدوه ﴿ **قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون** ﴾ (٤) وأخبرهم الفتيان بالتهمة إنها فقد الكأس التى يشرب فيها الملك وهى ثمينة ولن يهتموا بسارقها بقدر اهتمامهم باستعادتها فمن أعادها فله حمل بعير من الكيل وتكفل كبيرهم بهذا وهو مكافأة غالية جدا ﴿ **قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم** ﴾(٥) ونفى الإخوة عن أنفسهم التهمة وأنهم ما جاءوا إلى هذه البلاد بقصد السرقة وأنهم إذا افترض وسرقوا لن يسرقوا صواع الملك أولى بهم أن يسرقوا حمل بعير غلالا ﴿ **قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وماكناسارقين** ﴾(٦) ليس هذا من أخلاقنا وقد حضرنا قبل ذلك ولم نتهم هذه التهمة والعزيز شاهد على

---

(١) يوسف : ٦٩ .
(٢) يوسف : ٧٠ .
(٣) يوسف : ٧٠ .
(٤) يوسف : ٧١ .
(٥) يوسف : ٧٢ .
(٦) يوسف : ٧٣ .

ذلك وبإيعاز من يوسف وجه إليهم الفتيان سؤالا ما العقاب الذى يختارونه إذا ثبت كذبهم ووجدت الكأس معهم ﴿ **قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين** ﴾ (١) وسرعان ما قرروا جزاء السارق بما يتفق وشريعتهم وهو أن يصير السارق عبدا للمسروق منه وهذا ما كان يصبو إليه يوسف ﴿ **قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين** ﴾ (٢) وبدأت التمثيلية الانهماك فى التفتيش وشارك يوسف بنفسه فى ذلك ولم يبدأ برحال الأخ الأصغر بل تركه للدوره حتى لا ينكشف الأمر ثم دس يده وقلب فى رحاله وبعد وقت أعلن أنه عثر عليها ﴿ **فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه** ﴾ (٣) .

وفعل ذلك بوحى من الله لا تبعا لهواه وهو رد رادع للأخوة أمام أبيهم وإحراج لهم ، ويوسف لم يشأ أن يوقع على أخيه عقاب الملك وهو عقاب جسدى ولم يحتجز الأخ عنوة بل جعل الأسباب التى تتيح له ذلك حتى لا يخون عهد الملك ويقف عند شريعته ﴿ **كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ (٤) وتفجر الإخوة غيظا وتجدد حقدهم على يوسف ونفوا عن أنفسهم السرقة ونسبوها إلى يوسف وأخيه إنهما من فرع غير طاهر فهى صفة ورثاها عن أمهما التى لا تنتسب إلى إبراهيم وأرادوا التمويه على يوسف والقاء اللوم على الأخوين المنحرفين وهما أخ صغير علم سر المؤامرة وأخ ليس حاضرا فيدافع عن نفسه وإن كان هو يوسف لكن يوسف لم يبادلهم الترهات ولم يكشف لهم عن شخصيته وكان قادرا على أن ينزل بهم أشد العقاب لكنه لامهم أن يتحدثوا عن أخ غائب قد مات كما ادعوا فهم أشد شرا منه وأن الله مطلع على ما يدور فى أذهانهم (وما تخفى صدورهم أكبر) أليسوا. هم السارقين الذين سرقوا من أبيهم أحب أبنائه اليه ولم يرحموا

(١) يوسف : ٧٤ .
(٢) يوسف : ٧٥ .
(٣) يوسف : ٧٦ .
(٤) يوسف : ٧٧ .

الشيخ الكبير ولا الأخ الصغير الذى عرضوه للهلاك ﴿ **قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون** ﴾ (١) إنها أصول أخلاق بنى إسرائيل الكذب والخيانة والتمويه والحقد والتى تأصلت فى أحفادهم بعد ذلك وأحس الإخوة بضياع أخيهم ويئسوا من استرداده فأقبلوا على العزيز يسترحمونه ويستثيرون فيه الرأفة أن يطلق سراح الأخ الصغير فى مقابل واحد منهم فإن أباه سيزداد حزنا على حزنه وإن العزيز كم أحسن إليهم وأكرمهم ﴿ **قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين** ﴾ (٢) وما كان ليوسف أن يترك أخاه وقد ظفر به لكنه لزم الصدق والعدل ورفض أن يؤخذ برىء بمتهم ﴿ **قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون** ﴾ (٣) ولم يشر إلى السرقة لأنه يعلم أن أخاه لم يسرق وهذه حصافة لفظية رائعة .

موقف الأب الحزين :اجتمع الإخوة يتناجون ويتدبرون أمرهم قد استحكم اليأس من قلوبهم فلا العزيز يقبل شفاعتهم ولاهم قادرون على استعادة أخيهم ولامهم الأخ الأوسط فى رأيه،وربما كان أكبرهم سنا لامهم لأنهم سمحوا لأنفسهم بأن يقفوا هذا الموقف وهم قد فرطوا فى يوسف ونقضوا عهدهم وهاهم يكررون أنفسهم وأعلن أنه باق فى مصر فلن يبارحها إلا مع أخيه أو بإذن من أبيه ونصحهم أن يقصوا على أبيهم ما حدث وأن يستشهدوا بالقافلة التى علمت الخبر ولعل أباهم يصدقهم ﴿ **فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا** (٤) **قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين** ﴾ (٥) وهكذا كانت حادثة يوسف تؤرقهم وتطاردهم وهم فى هذه المرة لم يؤكدوا سرقة أخيهم وإنما رأوا بأعينهم

(١) يوسف : ٧٧ .
(٢) يوسف : ٧٨ .
(٣) يوسف : ٧٩ .
(٤) اختلوا وتحدثوا فى همس .
(٥) يوسف : ٨٠ ، ٨١ .

استخراج الكأس من رحله فلا يدرون ما وراء ذلك من سر فمرده إلى الله ، وعاد الاخوة وقصوا على أبيهم وطلبوا شهادة أصدقاء الرحلة بل استعدوا لأن ينتقل معهم إلى مصر ليقف على الخبر وأكدوا أنهم هذه المرة صادقون ﴿ **واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون** ﴾ (١) وجمع يعقوب الحادثين فى ذهنه ولم يناقشهم كعادته بل قال قوله الأول إنهم قد عزموا على التخلص من الأخوين ولكنه أضاف بعد التمسك بالصبر إن الأمل كبير وأن الله قادر على أن يعيد اليه أبناءه الثلاثة فهم بخير هكذا يحدثه قلبه ويكشف عن علمه ﴿ **قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم** ﴾ (٢) وأعرض عن بنيه واعتزل يبكى ويلهج بحب يوسف دون إخوته ومازال يذرف الدموع حزنا حتى تحول السواد إلى بياض وفقد الإبصار وهو يطوى آلامه بين جوانحه ويخفى عن الناس أساه ﴿ **وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم** ﴾(٣) إن يوسف كان أمل الأسرة النبى المرتقب ، ولهذا ظل يعقوب يبكى ولا يقبل مواساة أحد وغاظ الأخوة أن يظل على وفائه ليوسف وأن يؤدى بنفسه على هذه الصورة فعاقبوه ولاموه إنه سيفقد رشده بعد أن فقد بصره وسيظل هكذا حتى يهلك كلية والحزن لا يرجع ما فات ﴿ **قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين** ﴾ (٤) ولم يفقد الأب عينيه بل القدرة على الإبصار لأن غشاوة حجبت عنه النور وحزن يعقوب ليس بدعا فسيد الصابرين رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان عند موت ابنه إبراهيم جعلت عيناه تذرفان فقال له ابن عوف (وأنت يا رسول الله) فقال (يا ابن عوف إنها رحمة) ثم قال (إن العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون) وعن سعيد ابن جبير أنه قال : لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع وهو (إنا لله وإنا إليه راجعون) والا قالها يعقوب .

---

(١) يوسف : ٨٢ .
(٢) يوسف : ٨٣ .
(٣) يوسف : ٨٤ .
(٤) يوسف : ٨٥ .

ويرد يعقوب على بنيه إننى أشكو لله ولم أشك إليكم هو يعلم سرى ونجواى اطلع منه على أسرار خفيت عليكم ﴿ **قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ (١) ولا ينسيه حزنه أمله فى عودة يوسف فيطلب من بنيه أن يتجردوا من عوامل الحقد الدفين ويذهبوا إلى مصر هذه المرة لا بقصد طلب الكيل وإنما بحثا عن أخويهم (يوسف وأخيه) ولم يشر إلى الثالث لأنه كبير وفى مأمن وربما أراد أن يؤنبهم أنهم ضيعوا الاثنين الأول بالتآمر والثانى بإطلاع العزيز على شريعتهم فاسترقه وطلب منهم أن يثابروا ولا ييأسوا فاليأس صفة الكافر الذى يفقد الثقة فى الله ويحرك مشاعرهم أن الضيق مهما اشتد فبعده فرج ﴿ **يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ (٢) اسعوا إلى ظلاله .

يوسف يكشف عن شخصيته : لقد دعا الأخوة إلى مصر فى حالة نفسية جديدة دب فيها الأمل وكشفوا عنهم قناع الغيظ والحقد وعقدوا العزم على تحقيق رغبة أبيهم وأقبلوا على العزيز وبلهجة جديدة قبل طلب الكيل أعلنوا أنه أصابهم الضرر وأهليهم وهم يلمحون إلى السبب وهو احتجاز أخيهم ولم يفصحوا عن ذلك بل أرادوا معرفة حقيقته فأضافوا أنهم لا يملكون نقودا إلا شيئا رديئا لا يقبله التجار ومع ذلك فهم يطلبون أن يزيدهم الكيل وأن يكثر من كرمه فقد رأوه محسنا فى المرتين السابقتين وهم الآن أحوج إلى إحسانه والله يكافئه عليه ﴿ **فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين** ﴾ (٣) وتابعوا التأثرات التى بدت على قسمات وجهه وتأكدوا أنه يوسف وإن لم يعلنوا ذلك ولم يكن هناك مفر من أن يكشف عن شخصيته وقال لهم ﴿ **هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون** ﴾ (٤) ونلمس أنهم قد عاملوا الأخ الصغير معاملة قاسية وهم فى جهل وعمى قد استهواهم الشيطان وتحققوا أنه يوسف فلا ينطق بهذا إلا هو وربما أن الأخ الأصغر قص عليه

---

(١) يوسف : ٨٦ .
(٢) يوسف : ٨٧ .
(٣) يوسف : ٨٨ .
(٤) يوسف : ٨٩ .

كل شيء ﴿ **قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي** ﴾ (١) تعريف وتأكيد جزانا الله بصبرنا وتقانا فجعلني كبير مصر وأعاد إلى أخي ليأمن في جانبي ﴿ **قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ (٢) ويجللهم الخزي وهم يواجهونه محسنا إليهم وقد أساءوا، حليما بهم وقد جهلوا عليه، كريما معهم وقد وقفوا منه موقفا غير كريم لكن الله عوضه خيرا وفضله عليهم واعترفوا بأخطائهم ﴿ **قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين** ﴾ (٣) ويصفح يوسف ويعفو ويخرجهم من هذا الموقف المخزي ويعلن أن اليوم يوم مسرة ويرجعهم إلى الله هو صاحب الرحمة والمغفرة ﴿ **قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ (٤) وقد تمثل النبي ﷺ بها يوم الفتح ، ولم ينس يوسف أباه فقد حث إخوته على العودة بقميصه وإلقائه على وجهه ليعود إليه بصره ثم يقبلون جميعاً رجالا ونساء وأطفالا ليعيشوا في مصر تحت رعاية الله وفي نعمه ﴿ **اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين** ﴾ (٥) ومع إيماننا بأنها معجزة فإنه يجب أن نعلم أن يوسف تلقى العلم على كبار الأساتذة ودرس الطب النفسي وعرفه قبل علماء العصر بآلاف السنين واستخدم ما يسمى بالصدمة المفاجئة وكم من من أبكم تكلم وأصم سمع وأعمى رأى على أثر مفاجأة من فرح وسرور وهذا يحدث في عصرنا كثيراً .

* * *

---

(١) يوسف : ٩٠ .
(٢) يوسف : ٩٠ .
(٣) يوسف : ٩١ .
(٤) يوسف : ٩٢ .
(٥) يوسف : ٩٣ .

اجتماع الشمـــل ..

وأسرع واحد من الأخوة يسبق القافلة ولكن يعقوب شم رائحة القميص منذ غادر مصر وهذه معجزة أخرى وصاح فيمن حوله إنى أشم رائحة يوسف وأؤكد ذلك مع علمى بأنكم ستسفهون حلمي وتنسبونني للخرف والجنون ﴿ **ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون** ﴾(١) وضاقوا به ذرعا وتهكموا عليه وقالوا إنك تعيش على الذكرى التى ولت والميل الذى كنت فيه فأين يوسف ونحن وإذا كان فى مصر حقا فهل تشم رائحته على بعد مئات الأميال ﴿ **قالوا تالله إنك لفى ضلال القديم** ﴾ (٢) والواقع إن توارد الخواطر معلوم لنا والإحساس المادى والمعنوى كثيرا ما يقع من الآباء والأمهات الذين يغيب عنهم أبناؤهم فيحسون بقدومهم رغم بعد المسافات ، وجاء البشير وتحقق لمن حوله صدق حديثه وعاد إليه بصره فنظر إليهم وقال لهم إنى على صلة بربى لم تبلغوها وهو الذى ألهمنى ﴿ **فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ (٣) إنه لم ييأس أبداً من روح الله ، وفى لحظة ينكشف نقاب الخداع والكذب والخيانة وتلتقى عين يعقوب بأعين بنيه ويحسون بنظراته كأنها سهام نارية ترمى قلوبهم فطلبوا المغفرة والتوسط عند الله لهم ﴿ **قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين** ﴾ (٤) وكم أقروا بخطأ واعترفوا بذنب ومن الملاحظ أنهم طلبوا استغفاره لهم ولم يطلبوا صفحه وغفرانه وكيف يستغفر لهم والذنب عظيم ولذلك أمهل الطلب ﴿ **قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ (٥) وفرق بين جوابه وجواب يوسف فيوسف وقف

---

(١) يوسف : ٩٤ .
(٢) يوسف : ٩٥ .
(٣) يوسف : ٩٦ .
(٤) يوسف : ٩٧ .
(٥) يوسف : ٩٨ .

موقف الحاكم القادر فعفا،والأب يؤدب أبناءه يريد أن يشعرهم بعظم جرمهم حتى لا يعودوا لمثله ولا يملك الصفح فالذى يملكه هو الإنسان الذى ظلموه وآذوه .

وشهدت مصر موكباً كبيراً العزيز يخرج لاستقبال بنى إسرائيل حيث دخلوا مصر لأول مرة واستقروا فيها وظلوا بها إلى أن كان خروجهم الكبير كما أوضحنا فى سيرة موسى فى كتابنا (مع رسل الله فى القرآن الكريم) .

﴿ **فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** ﴾ (١) يذكر الله ولا ينساه،وأبواه هنا لا يعنى أنهما أبوه وأمه فالأم من المعتقد أنها ماتت وإلا لظهر لها أثر فى النصوص وزوجة الأب بمنزلة الأم وعلى عادة أهل البادية خروا سجوداً تحية وتعظيماً ولا يكون السجود عبادة إلا إذا اقترن بالنية ومن نعم الله على أمة محمد ﷺ أن جعل تحيتها(السلام عليكم ورحمة الله) واقتصر السجود لله وحده وفى الحديث أن معاذ بن جبل قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال ما هذا يا معاذ فقال إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله فقال (لو كنت آمرا أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها) .

وأجلس يوسف والديه على كرسى الحكم أو سرير الملك ونظر يوسف إلى أبيه يذكره برؤيا الصغر وأن تأويلها تم اليوم ﴿ **ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا** ﴾ (٢) والرؤيا تقترب من الواقع اقترابا كبيراً وأضاف إليها ما لم يرد بها إنه حضور أهله إلى مصر من البادية ﴿ **وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين أخوتى** ﴾ (٣) وذكر آخر المحن وهى دخول السجن ولم يشر إلى الجب حتى لا يحرج إخوته بل ألمح إلى وساوس

---

(١) يوسف : ٩٩ .
(٢) يوسف : ١٠٠ .
(٣) يوسف : ١٠٠ .

الشيطان وكأنه يذكر أباه بقوله ﴿ **فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾ وألمح إلى إتمام النعمة التى قال فيها ﴿ **ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب** ﴾ .

خاتمة مع القصة : أما وقد نال يوسف كل ما يتمن صرف الله عنه الكيد وأخرجه من السجن وأعطاه الملك وجمع شمله مع أهله وعلمه تأويل الأحاديث فليطلب الآخرة وليدع ربه أن يحسن خاتمته وأن يتوفاه مسلما ويحشره مع من سبقه من الصالحين .

وهنا لابد أن نشير إلى أن يوسف بعث بالرسالة فى مصر وإن لم يرد فى السورة ما يشير إلى ذلك إلا ما كان من حديثه عن العقيدة مع صاحبيه فى السجن ولكن آيه واحدة فى القرآن فى سورة المؤمن هى التى أشارت إلى رسالته جاءت خلال الحوار الذى دار بين الرجل المؤمن الذى كتم إيمانه وبين فرعون وحاشيته فى دفاعه عن موسى ﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا** ﴾ (١) كما أوضحنا فى كتابنا (مع رسل الله فى القرآن الكريم) ويدعو يوسف بهذا الدعاء الخاشع ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** ﴾ (٢) إنه إلتزم بوصية جده إبراهيم وأبيه يعقوب أن يموتوا على الإسلام ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون** ﴾ البقرة : ١٣٢ : ١٣٣ .

هذه قصة يوسف كانت من أنباء الغيب التى نزلت على محمد ولم يكن يعلمها قبل البعثة كما يقول ربنا بعد ذكر قصة نوح فى سورة هود ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك**

(١) غافر : ٣٨ .

(٢) يوسف : ١٠١ .

من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ (١) ويقول هنا بعد عرض قصة يوسف ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ (٢) مشيرا إلى إخوة يوسف ويقول بعد عرض قصة مريم ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (٣) ويقول عن موسى ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ (٤) ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ (٥) ويقول الله على لسان نبيه ﴿ ما كان لى من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون ﴾ (٦) فهذه قصص أراد الله بها تثبيت قلب نبيه وتأييده بالنصر ولتكون عظة وعبرة وذكرى لأصحابه فيتأسون بها ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ هود : ١٢٠ .

وفى ختام السورة يطمئن الله نبيه أنه سينصره مهما اشتد الضيق وعظمت المحنة كما انتصر الرسل السابقون ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ﴾ (٧) وإنما هى محن لابد أن يثبت عليها الموحدون ويثقوا فى نصر الله ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ (٨) إنها عبر للمفكرين وصدق وحق وهدى لكل مؤمن ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ يوسف : ١١١ .

« تمت قصة يوسف عليه السلام » .

---

(١) هود : ٤٩ .
(٢) يوسف : ١٠٢ .
(٣) آل عمران : ٤٤
(٤) ، (٥) القصص : ٤٤ : ٤٦ .
(٦) ص ٦٩ .
(٧) يوسف : ١١٠ .
(٨) البقرة : ٢١٤ .

المسيح عيسى بن مريم
عليه السلام

لقد اختار الله لهداية خلقه رواداً ينتشلون البشرية من وهدة الشرك وجعلهم كالسلسلة متصلة الحلقات ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** ﴾ **آل عمران : ٣٣ : ٣٤ .**

وواضح أن هذا الاختيار تم على علم سابق ومشيئة أزلية اصطفاهم وصنعهم على عينه خصائصهم تؤهلهم لحمل الرسالات وتلقي الوحي واستقبال الدعوات ، ولقد أفرد الله آدم ونوحا بالذكر وجمع آل إبراهيم وآل عمران لأن آدم ونوحا هما اللذان وقع عليهما الاختيار ، أما إبراهيم وعمران فقد امتدت الرسالة فى ذريتهما .

ولادة مريم ..

ليس هذا مجال تناول أخلاقيات بنى إسرائيل ، فهذا له موضع آخر وإنما نستطيع أن نقول إنهم قد انحرفت أخلاقهم وفسدت عقيدتهم وها نحن مع عمران وزوجته كانا صالحين وكانا يأملان خدمة المعبد وأن يكون من ذريتهما من يتفرغ لذلك ، وربما كانا قد انتظرا فترة طويلة حرما فيها الولد فكانا يكثران الدعاء ويطيلان التعبد ويرجوان الله أن يجعل من نسلهما من يخدم المعبد واستجاب الله وحملت امرأة عمران ، ولما أحست بالجنين يتحرك فى بطنها اتجهت إلى الله أن يتقبل منها هذا الولد فقد نذرته له سبحانه خادما لبيته خالصا من كل شبهة ﴿ **إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم** ﴾ **آل عمران : ٣٥ .**

وسرحت بخيالها تنتظر اليوم الموعود يوم تضع وليدها ليتحقق حلمها ولتسرع به إلى ساحة الله ، ومن الطبيعى أن تأمل فى أن يكون المولود ذكراً فهو أقدر على القيام بهذا العمل جديرا ببنوته لعمران وحفادته لإبراهيم لكن الأمر جاء على غير ما تمنت فلقد وضعت أنثى

وتعتذر لربها عن ذلك وهو أعلم ، ولأن مشاعرها كانت مع الذكر فقد قدمته فى الذكر وفرقت بين الذكر والأنثى فى الخلق والطباع والصفات لكنها لا تنسحب من وعدها بل توفى بنذرها وتسرع بتسمية الأنثى مريم وتحصنها بالله ونسلها من نزعات الشيطان ﴿ **قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ (١) وهى لفتة توجب الإسراع بتسمية المولود ولذلك حينما رزق رسول الله ﷺ بولد سماه وقال (ولد لى ولد سميته باسم أبى إبراهيم) وحضانة أم مريم لها كان إلهاما من الله .

وفى هذا يقول رسول الله ﷺ (ما من مولود يولد إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم) وقال : ما من مولود يولد إلا ومسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مسه إياه إلا مريم وابنها ثم يقول اقرءوا إن شئتم ﴿ **وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ ويتقبل الله النذر ويستجيب الدعاء ويبارك لهما فى نسلهما تقديرا لطاعتهما ﴿ **فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا** ﴾ (٢) لأن الله لا يفرق فى المعاملة بين الذكر والأنثى فقد تساويا فى الطاعة والتكاليف ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ (٣) وتسهدها ربها بحمايته وأعدها لأهم رسالة ولمعجزة العصر لاستقبال الروح وكلمة الله كاملة فى خلقها وخلقها ورباها تربية مباركة وهداها إلى علمه ونوره وملازمة الصالحين وحصنها من كل شر وصانها من كل سوء وحفظ عليها حياءها وتقاها وكان إنباتها صالحا كالأرض الطيبة التى تمهد لاخراج أطيب الزرع وكانت تنتقل هنا وهناك وأحبت المعبد .

كفالتها : وزيادة فى الاطمئنان عليها وحسن رعايتها كان لابد أن تكون فى كفالة رجل صالح ومن الواضح أن أباها كان قد مات وإلا لما كان هناك داع لذلك وطمع رجال الدين فى هذه المرتبة إكراما لعمران وحبا فى نيل جزاء كفالتها وزاحموا نبى الله زكريا الذى كان يعتبر

---

(١) آل عمران : ٣٦ .
(٢) آل عمران : ٣٧ .
(٣) النحل : ٩٧ .

صاحب الحق ونزل على إجماعهم أن يقترعوا فمن فاز نال كفالتها وكلهم كانوا رجال دين وكتبة الكتاب المقدس وجرى الاقتراع على سنة فطرية هى أن يلقوا بأقلامهم فى النهر فمن طفا قلمه فهو صاحب الكفالة وفاز زكريا لحكمة أرادها الله ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ (١) وحزن الشيوخ لكنهم اطمأنوا لكفالة زكريا شيخهم ونبيهم المعصوم وهو قريبها وزوج خالتها كما فى حديث الإسراء (إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة) ولذلك قضى رسول الله لجعفر بن أبى طالب حينما تنازع معه على بن أبى طالب وزيد بن ثابت على كفالة عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب وقال (الخالة بمنزلة الأم) لأن جعفر كان زوج خالتها ﴿ **وكفلها زكريا** ﴾ .

وكانت كفالة زكريا مقدمة لإبطال كل التهم التى ستوجه إليها فهم لا يختلفون فى أنه ذو خلق وعلم وأدب وتقى ويستطيع أن يدخل عليها أى وقت يشاء ، ولزمت مريم معبدها وبانت دلائل الخير عليها وأفاضت من بركتها على من حولها ورزقها ربها من حيث لا تحتسب ويدخل عليها زكريا فيجد عندها ثماراً ليس أوانها ويستفسر عن مصدرها فتجيبه إنه من عند ربها صاحب الرزق وهو لا يشك فى ذلك إنما يريد أن يطمئن إلى مصدره ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾(٢) والرزق الطعام الحلال لقول الله : ﴿ **فابتغوا عند الله الرزق** ﴾(٣) ومريم من هؤلاء الذين يوسع لهم فى الرزق لأنهم لا يطغون ﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء** ﴾ (٤) ورزق الله لمريم لا يقف عند سنة مألوفة فهى معجزة وكل أمورها معجزات .

---

(١) آل عمران : ٤٤ .
(٢) آل عمران : ٣٧ .
(٣) العنكبوت : ١٧ .
(٤) الشورى ٢٧ .

وأهاجت مريم خواطر الشيخ زكريا وذكرته بعقمه فانطلق يدعو الله الذى رزق مريم الثمار فى غير أوانها أن يمنحه ولداً من صلبه يحمل رسالته ويسير على نهجه ويخلفه فى قيادة قومه إنه رجل طاعن فى السن ودعا الله كما يقول ربنا : ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفياً قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربى شقياً وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله ربى رضياً** ﴾ (١) إنه يخاف أن يموت دون عقب فتضيع الولاية بين قوم أحس بانحرافهم واستمر فى الدعاء : ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء** ﴾ (٢) نفس الدعاء الخاشع الذى دعا به إبراهيم ودعا به عمران واستجاب الله من زكريا لأنه يستحق ذلك ، ولأن زوجته كانت صالحة بارة كريمة : ﴿ **وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾ (٣) وأرسل الله الملائكة تبشره بالولد المبارك يحيى الذى سيكون سيدا فى قومه معصوما من المعاصى لأنه سينعم بمرتبة النبوة ومنازل الصالحين ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين** ﴾ (٤) ولسنا بصدد تناول حياة زكريا وإنما استدعى الموقف أن نربط بين دعاء مريم ودعاء زكريا وكأنما تأدب زكريا وهو النبى على يد مريم وتلقى منها الحكمة .

مريم والحدث الكبير

نمت مريم نمواً كريماً وكل يوم تزداد طاعة واشتهر بين الناس قنوتها وعبادتها وأمام تغير جسمها وما يعترى الأنثى حينما بلغت سن النساء اعتزلت فى شرقى المسجد وضربت على نفسها حجاب الوجه وحجاب الستر وحجاب الإيمان والتقوى فقد كانت من أجمل نساء العالمين والوجه

(١) مريم ٢ — ٦ .
(٢) آل عمران : ٣٨ .
(٣) الأنبياء : ٨٩ : ٩٠ .
(٤) آل عمران : ٣٩ .

يثير الفتنة ﴿ **واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا** ﴾ (١) صانت نفسها من مهاوى الزلل ومزالق الفتنة وابتعدت عن كل ما يصيبها من نظرة أو همسة واستحقت ثناء الله عليها ﴿ **ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها** ﴾ (٢) وإحصان الفرج يكون بغض البصر واعتزال الفتنة وضرب الحجاب والانشغال بطاعة الله ولزوم ذكره ليطمئن القلب وتتطهر النفس ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ (٣) واستحقت تكريم الله لها (وكانت من القانتين) إنها مكانة أهلتها لتكون أما لرسول الرحمة والسلام المسيح عيسى ابن مريم وواحد من أولى العزم الذين أخذ الله عليهم الميثاق وخصهم بالذكر ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ (٤) والرسول ﷺ يعتبر مريم من خير نساء العالمين ففى الصحيحين قال رسول الله ﷺ (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) ولقد وعت مريم أسرار الرسالات واطلعت على وحدانية الله وآمنت بربها وصدقت بما أنزل من كتب ﴿ **وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين** ﴾ (٥) ، وتتوالى البشائر وتتوافد الملائكة تتزاحم فى محرابها يهنئون بالمعجزة الكبرى وأن الله أحاطها بكل الضمانات وطهرها ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ (٦) .

ولا ندرى كيف كانت بشارة الملائكة هل جاءوها فى الرؤيا أم فى الحقيقة ونحن أمام معجزات فليخضع العقل لها ، والاشارة إلى طهرها هام حتى لا نشك فى ذلك لحظة وأن الله اختارها دون النساء للمعجزة

(١) مريم : ١٦ .
(٢) التحريم : ١٢ .
(٣) الرعد : ٢٨ .
(٤) الاحزاب : ٧ .
(٥) التحريم : ١٢ .
(٦) آل عمران : ٣٢ .

وأن لم تكن قد علمت بعد لأى شيء اختارها ولم يخطر ببالها أن تكون أما بغير زوج وبدون مساس رجل وهى كانت تسمع عن المسيح المنتظر وكانت تتمنى أن تكون أمه ، وأوصتها الملائكة أن تزداد تبتلا وخشوعا وطاعة فى ساحة مولاها وأن تكثر من الصلاة لتكون على اتصال دائم بخالقها ﴿ **يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** ﴾ (١) إنه انطلاق من إسار الطين إلى آفاق ربانية .

بشارة الملائكة : فى هذا الجو الخاشع ومريم تزداد قنوتاً توالت عليها وفود الملائكة جاءوا لتثبيت قلبها والتمهيد للملك الذى سيزورها ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم** ﴾ (٢) يكون وجوده بكلمة الله ويسمى المسيح إما لكثرة سياحته فى الأرض أو لأنه يمسح آلام النفوس ويشفى مرضى القلوب ويطهر الأجساد والأرواح وحدد لقبه (ابن مريم) فليس ابن الله وليس ابن مخلوق آخر لينفى الله عنه الألوهية،وبشارة الملائكة هنا تشبه بشارة الملائكة لابراهيم وزوجته وبشارة زكريا وكما جاءوا إبراهيم على هيئة رجال فقد جاءوا مريم على هيئة نساء تقديرا لطبيعتها ولذلك لم ترتعد حينما جاءوها كما حدث عندما زارها الملك كما سيأتى بعد .

وليس معنى أن عيسى جاء بكلمة الله أنه اختص بذلك وإنما كل مولود يجيء بكلمة الله وأمر منه ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾ (٣) والنص على كلمة الله إنما اقترن بالأمر العظيم الذى حدث فى وجود عيسى وخالف سنة البشر ومريم نفسها أحست بذلك وتعجبت وفكرت كيف يكون المولود عيسى ابن مريم كيف ينسب إليها اليس له أب ينسب إليه وتتطهر أمام الملائكة وتناجى ربها ﴿ **قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر** ﴾ (٤) فليس لى زوج ولا أرغب فى الزواج فقد وهبت نفسى لك ولزمت بابك وأنت علام الغيوب ليس لى علاقة مع رجل لم أحب سواك ولم أعبد غيرك ولم أرغب من دنياى سوى

---

(١) آل عمران : ٤٣ .
(٢) آل عمران : ٤٥ .
(٣) يس : ٨٢ .
(٤) آل عمران : ٤٧ .

طاعتك لكن الله قرر ﴿ **قال كذلك الله يخلق ما يشاء** ﴾ (١) لأنه قضى بذلك فى علمه الأزلى ولا معقب لأمره ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ (٢) .

زيارة الملك : هكذا هيأ الله مريم ، وبينما هى تعيش فى هذا الجو الروحانى تتعبد فاجأها رجل غريب سوى الخلقة جميل الطلعة لا تدرى من أين جاء ومن أين دخل وكيف اقتحم عليها خلوتها ولم يدر بخلدها أنه رسول الله جاء فى هيئة رجل يحمل لها البشرى ولتتم على يديه المعجزة ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا** ﴾ (٣) والروح جبريل الأمين على وحى الله كما يقول ربنا ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾ (٤) وما كان ليأتى فى صورته الملائكية فيفزعها والرسول ﷺ لم يتحمل رؤيته حينما نزل عليه فى غار حراء كما هو معروف وانطلق إلى خديجة يصيح (زملونى زملونى) (دثرونى دثرونى) لقد جاء الروح مريم على هيئة رجل ليكون الابتلاء أكبر وتنتفض مريم انتفاضة العذراء القانتة ولا تفكر إلا فى أمر واحد هو أنه يريد بها سوءا فلم تجد إلا سلاح التعوذ تتحصن به ﴿ **قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾(٥) وتدور فى ذهنها أفكار منها : ماذا لو أطلع العالم عليهما وهما فى هذا الموقف فذكر الله أنسب لهذا الوقت تستثير به الإيمان فى قلب الرجل وتكسر حدته ومريم لم تنس أن فى قومها انحرافات وأن بلدها محط لطلاب اللذة ومرتع لعبث الرومانيين ولم يتركها الله فى قلقها ولم يتباطأ الوحى وإنما أسرع يكشف عن شخصيته ليس إنه طالب متعة ولا رجل سوء إنما هو رسول الله جاء ليبشرها بالولد ﴿ **قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا** ﴾ (٦) أما هو رسول فمرحبا به لكن الثانية عظيمة على فتاة تدرك معنى هذا ، إنه صارحها بالأمر العظيم وازدادت خوفا كيف يهبها الغلام بدون اتصال وهى لن تسمح بهذا

---

(١) آل عمران : ٤٧ .
(٢) القمر : ٥٠ .
(٣) مريم : ١٧ .
(٤) الشعراء : ١٩٢ : ١٩٣ .
(٥) مريم : ١٨ .
(٦) مريم : ١٩ .

ما دام فيها حياة لنتخيل فزعها وهى ترى رجلا غريبا يعرض عليها ذلك ولم تطمئن بعد أنه رسول ربها ربما أراد انتهاز سكون المكان لينال مأربه وهو يعلم أنها قد لا تثوز ولا تستغيث خوف الفضيحة إنه صارحها بأمر اعتبرته خدشا لحيائها وخروجا على المألوف وتدركها شجاعة الأنثى فى ثبات المؤمنة التقية وتناقشه مناقشة موضوعية ﴿ **قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا** ﴾ مريم : ٢٠ .

فلم ينلها رجل ولم تك تتعرض للرجال فكيف يكون الولد ، وهى فى مناقشتها ترتقى فوق المجادلات لأن الرجل ما غازلها وهى فى موقف لا يسمح لها بوعظه وزجره ، ومريم نسيت الإرهاصات السابقة وتبشير الملائكة ، ويخرجها الملك من عزلتها وقلقها ويرد فى رفق إن هذا الأمر سيتم فى سهولة ويسر دون اعتداء عليها أو خدش لحيائها وستكون وابنها آية العصر والعصور التالية وقد قضى الله ذلك وما عليها إلا أن ترضى بمشيئته وتسلم قيادها له ﴿ **قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا** ﴾ مريم : ٢١ .

مولد عيسى ..

ولادة عيسى : لا نستطيع أمام الحمل إلا أن نخضع فهو معجزة وسواء كان ذلك فى مراحله الطبيعية فى تسعة أشهر أم تم فى لحظات وتم الوضع وإن كان هذا أنسب للمعجزة لقد حملت بكلمة الله ﴿ **وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** ﴾ (١)﴿ **فنفخنا فيها من روحنا** ﴾ (٢)كيف كانت النفخة وكيف تلقتها أسرار إلهيه لا نخوض فيها بغير علم ولاشك أنها مخالفة للمألوف البشرى والسنن الكونية فبروح الله جاء عيسى كما انتقل آدم من رتبة الطين إلى رتبة البشرية فعيسى أشبه بآدم وإن اختلفت التفاصيل آدم جاء من غير أبوين وعيسى جاء بغير أب فعيسى أخف حملا ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ (٣) وكل إنسان جاء بطريقة معجزة فهذه النطفة التى يقذف

---

(١) النساء : ١٧١ .
(٢) الأنبياء : ٩١ .
(٣) آل عمران : ٥٩ .

بها الرجل فى رحم المرأة أين تستقر ومن يتولاها بالرعاية إنه الخالق المبدع رب العزة سبحانه وتعالى فليس عيسى هو الكلمة وإنما بالكلمة صار عيسى ابن مريم وأمام (وروح منه) نحس أنه مخلوق خلقه الله لأن الإله لا يحده مكان ولا زمان ولا يتصف بصفة بشرية ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ (سورة الإخلاص) .

بهذا النور حملت مريم وبمشيئة الله استقبلت النفخة وكان لابد أن تحتجب حتى تضع مولودها فاختفت فى مكان أمنت فيه ﴿ **فحملته فانتبذت به مكانا قصيا** ﴾ (١) بعيدا عن العيون والألسنة والفاء تخبرنا وكأنما تشير إلى التتابع حمل فوضع لأن المخاض جاءها سريعا فألجأها إلى جذع نخلة معروفة ﴿ **فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة** ﴾ (٢) فإذا كانت غابت تسعة أشهر على أن الحمل صار طبيعيا لقلق عليها قومها ولبحثوا عنها فما كانت لتختفى هذه المدة وإنما الأقرب إلى الذهن أن المعجزة تمت فى فترة زمنية قصيرة وكل هذه آراء اجتهادية والمخاض ألجأها إلى مكان معروف لها ربما كانت تعتزل فيه وتتعبد الله وهو الذى اختارته لهذه المهمة وواضح أن أحدا لم يكن معها إنما أمدها الله بالملائكة وهذا طبيعى وتم الوضع لا ندرى على أية صورة وظلت مريم مشتتة الفكر ساهمة تفكر فى أمرها ماعسى أن تواجه به قومها حتى أنها تمنت الموت وأن تكون فى طى النسيان قبل أن تقف هذا الموقف ﴿ **قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** ﴾ (٣) والنسى الشىء الذى لا ذكر له ويمدها ربها بطاقات نورانية ليخرجها من أحزانها وبينما هى فى تأملاتها تنظر إلى المولود ثم ترقب السماء إذا بصوت حنون يناديها يا مريم يغمرها بنور الأمل ويذهب عنها أحزانها إنه صوت هذا الطفل الذى لم يمض على ولادته وقت قصير أنها أم ولابد من أن تأكل وتشرب لتقاوم ﴿ **فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ (٤) وسواء

---

(١) مريم : ٢٢ .

(٢) مريم : ٢٣ .

(٣) مريم : ٢٣ .

(٤) مريم : ٢٤ .

كان المنادى جبريل أم عيسى فهو نداء إلهى ونحن نميل إلى أن الصوت صدر عن عيسى لتطمئن مريم والسرى مجرى ماء فجره الله لها وأثمر لها النخلة فى غير أوانها وقال لها الصوت ﴿ **وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا** ﴾ (١) والرطب يحوى مواد غذائية كاملة والبدوى يعتمد على التمر وهو يقطع الصحراء وفى الطعام والشراب سكون لفؤادها لأنهما يساعدان على راحة الجسم ﴿ **فكلى واشربى وقرى عينا** ﴾ (٢)وأوحى الله إليها أن تكون على ثبات وأن تنشغل بصيام عن الكلام كسنة قومها ﴿ **فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ (٣) ولقد سبقها زكريا فى ذلك حينما جعل الله له علامة إنجابه يحيى أن يصوم ثلاثة أيام يكلم الناس بالإشارة ويكثر من الذكر والتسبيح ﴿ **قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار** ﴾ (٤) .

مريم وقومها : لا ندرى كم من الوقت انقضى وهى محتجبة عنهم لقد جاءت قومها تحمل ابنها ودهش القوم واعتبروها قد أتت فعلا فاضحا ﴿ **فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا** ﴾ (٥) منكرا إنه مشهد مؤثر فالعذراء التى بهرت الناس بعفتها وتقواها تعود إليهم برضيع فوق يديها تعترف بأنه ابنها من أين جاء وما شأنه وهاجمها أشرار قومها الذين تهكموا عليها وشهروا بها ونادوها بألقابها المقدسة وتعجبوا أن تكون هذه ابنة الرجل الصالح عمران وزوجته التقية ﴿ **يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا** ﴾(٦) وربما قصدوا بهارون أخ موسى وكانوا يحبونه أو ربما ألمحوا إلى صالح من صالحيهم كان يعرف بهذا الاسم أو رجل فاسد معروف لهم .

---

(١) مريم : ٢٥ .
(٢) مريم : ٢٦ .
(٣) مريم : ٢٦ .
(٤) آل عمران : ٤١ .
(٥) مريم : ٢٧ .
(٦) مريم : ٢٨ .

عيسى يتكلم : وكان الوقت قد طال وأرادت أن تنهى هذه الحملة فهيجت المجتمعين أكثر إنها تشير إلى هذا الرضيع ليرد عليهم ففى نظرهم أنها وصلت لذروة الفجر وأنها أهانت عقولهم واعتبروا إشارتها إلى عيسى أعظم جرما من زناها ولا ندرى كيف تمت الإشارة وكيف أُلهم عيسى إنها معجزة ﴿ **فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا** ﴾ مريم : ٢٩ .

ويتحرك الوليد يبدد السكون ويخرس ألسنة السوء ويطبق صمت رهيب على الجموع التى جاءت من كل مكان لرؤية مريم وطفلها ونظروا إلى الوليد بقدرة الله يحرك شفتيه وبلسان فصيح ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة يعيد لأمه مهابتها ومكانتها ويدافع عنها ويبطل التهم المغرضة ــ إنه يعلن عبوديته لله فهو ليس عبداً لأحد وليس إلهاً وليس ابن الله وليس ابن رجل هو إنسان رسول خصه الله بالإنجيل كتابا مقدسا يصدق التوراة وسيكون نبى بنى إسرائيل ، يصلح لهم عقيدتهم ويخفف عنهم الأعباء واستمر عيسى فى حديثه:حبانى الله البركة صغيرا وكبيرا فى البدو والحضر فى السهل والجبل أمحو كل باطل وأبطل كل زيغ وأقود الناس إلى الله وأمسح بيد الله آلامهم وأصلى له صلاة قانتة وأنادى بحق الفقير والمسكين فى مال الغنى طهرة للنفس وسأظل كذلك حتى ألقى ربى ﴿ **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا** ﴾ (١) أهب حياتى لخدمة الله فلا أتحدث إلا له ولا أعمل إلا ابتغاء مرضاته .

وبعد أن هيأ الأذهان للهدف وأحاط المجلس بخشوع ونشر من رحمته وبركاته وسكنت ثائرة الثائرين دافع عن أمه ولم ينف عنها التهمة فليس هناك من تهمة إنما أعلن أنه سيكون براً بها مدافعا عنها، فالله أودع فى قلبه الرحمة وليس بعتى ولا عاص ﴿ **وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا** ﴾ (٢) ويختم الحديث بأن الله أمنه فى ثلاثة أيام عصيبة على كل

---

(١) مريم : ٣٠ ، ٣١

(٢) مريم : ٣٢ .

إنسان يوم الميلاد لأن جدتى عوذتنى بالله من الشيطان وهو يوم انفصال حى عن حى وانتقال من الضيق إلى السعة ومن غذاء الألم إلى غذاء الأرض ، ويوم الممات لأن الروح تفارق الجسد وينتقل الإنسان إلى عالم آخر لا يدرى ما الله فاعل فيه ، ويوم البعث والحساب والجزاء يوم يقوم الناس لرب العالمين ولا يقدر بشر أن يؤكد فيه نجاته ﴿ **والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** ﴾ (١) وهكذا بهر السامعين وأعجز المرجفين .

نشأة عيسى : خرجت مريم من محنتها أشد ما تكون كرامة واعتذروا إليها وعادت إلى مكانتها وصارت بركة تمشى على الأرض هى وابنها ﴿ **وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾ الأنبياء : ٩١ .

وتحملت مريم تبعة كبرى وهى تربية هذا الطفل وتنشئته تنشئة صالحة ولو أنه لم يكن فى حاجة إلى تربية الناس ولا إلى معارف البشر فإن الله أودع فيه من علمه ونوره مثل سابقيه من الرسل ولكن المنحرفين من بنى إسرائيل ظلوا يطاردونها هى وابنها مما اضطرها إلى الهجرة إلى مكان أمين كثرت فيه الاجتهادات ولكننا نقف عند النص ﴿ **وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين** ﴾ (٢) إنها فى أمن الله لأنها مع ربها ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ (٣) .

ونما عيسى متصفا بالصفات التى نقلتها الملائكة لمريم كامل الخلق والخلق حسن الهيئة وجيها مبرءا من كل نقص وعيب كما قال الله فى موسى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها** ﴾ (٤) فعيسى طاهر فى الدنيا سليم فى الآخرة من المقربين إلى الله ﴿ **وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين** ﴾ (٥) وبنفس الطلاقة التى تحدث بها وهو وليد سيكون فى

---

(١) مريم : ٣٣ .
(٢) المؤمنون : ٥٠ .
(٣) الأنعام : ٨٢ .
(٤) الأحزاب : ٦٩ .
(٥) آل عمران : ٤٥ .

شبابه وفى كهولته لا ينطق إلا بالحكمة يملأ الله قلبه نورا وهدى ويعلمه علم الأولين ويقف على ما جاء فى التوراة ويمنحه الإنجيل ﴿ **ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل** ﴾ (١) فعيسى جاء أساسا ليعيد للتوراة مكانتها ﴿ **ومصدقا لما بين يدى من التوراة** ﴾ آل عمران : ٥٠ .

وكان عيسى كسائر البشر يجرى عليه ما يجرى عليهم من مرض أو طعام أو شراب أو نوم أو خوف والله ينفى عنه الألوهية بأنه وأمه كانا يأكلان ويمشيان بين الناس ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام** ﴾ (٢) ميزته أنه عبد الله اختاره رسولا لبنى إسرائيل ﴿ **إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل** ﴾ الزخرف : ٥٩ .

ونلاحظ أن الله وصف مريم بأنها صديقة أى صدقت الرسل السابقين وما نزل من كتب وصدقت ابنها وآمنت به وهذا ينفى عنها الألوهية لأن الله يكون متبوعا لا تابعا والصديق له مرتبة أدنى من النبى ولذا قال ربنا ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا** ﴾ (٣) فعيسى لا يتكبر على عبادة الله ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا** ﴾ النساء : ١٧٢ .

رسالة عيسى : لقد بعث مثل غيره من الأنبياء فى الأربعين وهى سنن الكهولة ﴿ **ويكلم الناس فى المهد وكهلا** ﴾ (٤) حينما يكتمل جسم الإنسان وعقله وتستقر طباعه ولم تكن رسالته لجميع البشر وإنما كانت خاصة ببنى إسرائيل والرسول يقول (ما من رسول إلا وقد بعث فى قومه أما أنا فقد بعثت لكل أبيض وأحمر) جاء ليخفف بعض القيود التى فرضها الله على بنى إسرائيل جزاء انحرافهم ﴿ **ولأحل لكم بعض**

---

(١) آل عمران : ٤٧ .

(٢) المائدة : ٧٥ .

(٣) النساء : ٦٩ .

(٤) آل عمران : ٤٦ .

الذى حرم عليكم ﴾ (١) جاء فى سلسلة الرسل المتتابعة ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم** ﴾ (٢) لم يخرج على التوراة وإنما جاء محييا لما مات منها ﴿ **وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ (٣) وقوم عيسى كانوا مطالبين بالاحتكام إلى الشريعة الموسوية لأن موسى لم يأت بشريعة كاملة ولذلك حينما استمع الجن إلى رسول الله ﷺ ذكروا توراة موسى ولم يذكروا إنجيل عيسى ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه** ﴾ (٤) .

عيسى يدعو قومه : بدأ قومه بقوله ﴿ **يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ (٥) وهو قول كل رسول قبله وقولته وهو وليد وحذر من الشرك بالله ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾ (٦) وأعظم درجات الظلم الإشراك بالله ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ (٧) وأثار مشاعرهم بذكر الله وعبوديته وأن هذا هو الطريق المستقيم ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ (٨) فأبطل عبادة الأباطرة والأصنام وجعل العبادة لله وحده وأعلن أنه ليس آخر رسول وإنما يكون آخرهم محمد ﷺ يكمل الله به الدين ويتم النعمة ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾ (٩) ولم يكن عيسى وحده الذى بشر بمحمد لقد سبقه إبراهيم حينما رفع مع ابنه اسماعيل قواعد البيت ودعيا الله أن يخرج من هذا المكان أمة مسلمة يكون منها رسول مبارك ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ (١٠) بل كل الرسل آمنوا به . وبشروا به ونصروه وأخذ الله عليهم الميثاق وكان

---

(١) آل عمران : ٥٠ .
(٢) ، (٣) المائدة : ٤٦ .
(٤) الاحقاف : ٢٩ ، ٣٠ .
(٥) ، (٦) المائدة : ٧٢ .
(٧) لقمان : ١٣ .
(٨) الزخرف : ٦٣ ، ٦٤ .
(٩) الصف : ٦ .
(١٠) البقرة : ١٢٩ .

على ذلك شهيدا ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ (١) وجاءت أوصاف النبي ﷺ في التوراة والإنجيل كما سجل القرآن ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم** ﴾ (٢) بل إن أصحاب محمد ﷺ جاءت أوصافهم في التوراة والإنجيل ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ (٣) والرسول ﷺ يقول (أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورؤى أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام) .

معجــزاته ..

معجزات عيسى : كان قوم عيسى لم يزالوا في طور لا يسمح لهم بالاكتفاء بالأدلة العقلية وكان لابد أمام إصرارهم وعنادهم أن يهزهم بمعجزة حسية وجاء عيسى بمعجزات تتعلق بالحياة تعبيرا عن وجوده بغير أب متناسبة مع عقول قومه الذين برعوا في فنون الطب وعجزوا عن أمور أتى بها عيسى ليؤكد أنه رسول من عند الله يستمد هدايته منه .

الأولى : أنه يشكل من الطين طائرا ينفخ فيه فيطير بإذن الله ونفخته في الطين تدب فيه الحياة كنفخة الملك في فرج مريم فجاء عيسى.والحياة سر من أسرار الله يعطيها الجماد فيتحول إلى كائن حي ،**والثانية والثالثة** إبراء الأعمى وشفاء الأبرص **والرابعة** يدعو الميت من رقدته فيقوم حيا **والخامسة** أن يخبر بغيبيات عما في بيوت الناس من متاع لم يطلع عليه

---

(١) آل عمران : ٨١ . (٢) الاعراف : ١٥٧ . (٣) الفتح : ٢٩ .

ومن طعام يتناولونه قبل أن يفدوا إليه ﴿ **أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لأية لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ (١) والمعجزات كما نرى تحدٍ لمن أغلق سمعه وبصره وموافقة لقومه الذين برعوا فى الطب كما جاء موسى بمعجزتى العصا واليد لأن قومه برعوا فى السحر وجاء محمد ﷺ بالقرآن لأنه قومه كانوا أبلغ الناس قولا وأفصحهم بيانا ، ولم يكن عيسى إلا وسيلة لعرض آيات الله والراجح أنه لم يكرر المعجزة فما كان ليحيى ميتا كل يوم أو يشفي آلاف المرضى ويعيد البصر لآلاف العميان وإنما فعل ذلك مرة أمام جمع من الناس رأوا بأعينهم فنقلوا عنه وإلا خرج الأمر من يد الإله إلى يد البشر .

تكذيب قومه له : لم يكونوا أفضل من الأمم السابقة التى عرضنا جحودها فى كتابنا (مع رسل الله فى القرآن الكريم) وإنما كذبوه وسخروا منه واعتبروا ما جاء به سحرا ﴿ **فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** ﴾ (٢) وفقد الإيمان بين هؤلاء الشيوخ المخرفين ولكن الله عوضه بشباب مؤمن لم تبطره النعمة ولم تعمه التقاليد دعاهم إلى الله فاستجابوا وأطلق عليهم « الحواريون » أى الخلصاء ﴿ **وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون** ﴾ (٣) دعاهم إلى نصرة العقيدة فالتفوا حوله وضحوا بكل شيء وكانوا له نعم الأنصار أخلصوا لله وطلبوا الاستشهاد فى سبيله ﴿ **فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ (٤) ملأ الله قلوبهم رحمة ونورا ﴿ **وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة** ﴾ (٥) ولذلك أوصى الله أصحاب محمد ﷺ أن يتشبهوا بالحواريين وأن يلتفوا حول محمد كما التفوا حول عيسى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من**

---

(١) آل عمران : ٤٩ .
(٢) الصف : ٦ .
(٣) المائدة : ١١١ .
(٤) آل عمران : ٥٢ : ٥٣ .
(٥) الحديد

أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ الصف : ١٤ .

فجور بنى إسرائيل : مع هذه المعجزات تمادوا فى الإثم وظلوا على طباعهم الملتوية وسبوه وسبوا السيدة البتول واتهموها بالزنا ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما** ﴾ (١) ولسنا بصدد تعديد قبائحهم فهذا سنفرغ له بحثا منفصلا فى كتاب نصدره قريبا إن شاء الله ولهذه الانحرافات سئمهم عيسى ولعنهم كما لعنهم داود قبله لأنهم فعلوا المنكرات وشاعت بينهم ولم ينه بعضهم بعضا ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ (٢) وشاركهم رجال الدين وفى هذا يقول رسول الله ﷺ (لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم) وظلوا يتملقون أصحاب السلطان ﴿ **ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون** ﴾ (٣) لقد تآمروا ضد عيسى ودسوا له عند الحاكم وأوهموه أنه يثير الفتنة ويؤلب الرعية ويحدث الفرقة بين الناس وجعل الناس شيعا وأنه ينادى بحرية العبيد ﴿ **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** ﴾ (٤) .

قصة الصلب : نحن لا نؤرخ وإنما نقف عند النص القرآنى لقد اتفق الرأى على صلب عيسى كشريعة الرومان وحكمهم فى من يخرج عليهم وسخر الله من الجلادين فأوحى إلى رسوله عيسى أنه سيتوفاه ويرفعه إلى الآفاق الربانية ﴿ **إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى** ﴾ (٥) والوفاة غير الموت وإنما معناها فقد الإحساس وهى تسبق الموت ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾ (٦) والنوم وفاة ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار** ﴾ (٧) وأخبر الله عيسى أنه سيطهره من أرجاسهم وخياناتهم ويرفع ذكره بين الناس ويبقى رسالته وأن أنصاره

---

(١) النساء : ١٥٦ .
(٢) ، (٣) المائدة : ٧٨ : ٨٠ .
(٤) آل عمران : ٥٤ .
(٥) آل عمران : ٥٥ .
(٦) الزمر : ٤٢ .
(٧) الأنعام : ٦٠ .

سيكونون أعلى مرتبة وفوق أعدائه أعظم مكانة من اليهود المدنسين الذين كفروا بعيسى وناصبوه العداء ﴿ **ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾ (٤) وهذا واضح في أن المسيحيين أعلى قدرا في جميع بقاع الأرض من اليهود ، وفي الآخرة ينصفه ربه الذى سيكون الحاكم الأوحد يوم الذين ﴿ **ثم إلى مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ (٥) .

والذين اتبعوا عيسى هم المتمسكون بالشريعة الموسوية الحقة ولم ينادوا بألوهيته ولم يكذبوه ذلك أن بنى إسرائيل انقسموا ثلاث فرق فرقة آمنت بالله وبعيسى وبجميع الرسل وهم الذين سماهم القرآن النصارى وهم أحب الناس للمسلمين ﴿ **ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ (١) .

وفرقة جعلت عيسى ابن مريم نصف بشر ونصف إله وادعت أنه ابن الله وهم الذين قال الله فيهم ﴿ **وقالت النصارى المسيح ابن الله** ﴾ (٢) وهو انحراف عن العقيدة واعتداء على وحدانية الله ﴿ **الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً** ﴾ (٣) وطائفة ثالثة اعتبرته وأمه إلهين والله ثالثهما ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد** ﴾ (٤) وأعمى الله أبصار من أرادوا اقتياده للصلب وقادوا شبيها له وصلبوه وصاح المنحرفون حول المصلوب يتهكمون ﴿ **إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله** ﴾ (٥) ينسبونه لأمه تحقيرا لشأنه وينكرون أنه رسول ونفى الله عن عيسى القتل أو الصلب ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾ (٦) واختلف الذين حضروا قصة الصلب فمنهم من كذب ومنهم من ظن ولم يؤكد أحد منهم أن المصلوب عيسى لأن الله حماه ورفعه ﴿ **وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به**

(١) المائدة : ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) التوبة : ٣٠ .
(٣) الفرقان : ٢ .
(٤) المائدة : ٧٣ .
(٥) ، (٦) النساء : ١٧٥ ، ١٥٨ .

من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (١) وحكم الله فى القضية عادل وأخير ولا معقب لحكمه .

أما القول بأنه صلب ليكفر عن خطيئة آدم فهو مردود لأن آدم عصى وتاب الله عليه ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ (٢) لأن الله لقنه كلمات التوبة ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٣) وكيف يرد الله رجاء الإنسان الأول الذى لم يكن قد اكتسب مناعة بعد والقرآن واضح ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ (٤) .

وتصارع أنصار عيسى وأعداؤه ونصر الله أتباعه وتمت لهم الغلبة ﴿ فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصحبوا ظاهرين ﴾ (٥) ووعد الله أن يؤمن اليهود بعيسى إما قبل الاحتضار أو فى آخر الزمان حيث يعترفون بالعقيدة السليمة وسيشهد على إيمانهم وكفرهم يوم القيامة ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ النساء : ١٥٩

وإذا كان بعض المسيحيين قد فروا من الاضطهاد ولجأوا إلى الصحراء واتخذوا الرهبنة وانتشرت الاديرة فلا نرى سببا فى وجودها فى عصر أمنوا فيه على عقيدتهم إلا أنه سلبية وهروب من الواقع وعودة بالبشرية إلى الوراء فلا يجوز أن يقبر نفسه كل من ارتكب إثما أو صدم عاطفيا أو حلت به كارثة وإنما الدين يدعو إلى الإرادة القوية ، ولذلك هاجم الله الرهبنة فإن كانت زهدا رغم إقبال الدنيا فمرحبا بها ويمكن أن تتحقق فى دنيا الناس كما كان السيد المسيح عليه السلام ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ الحديد٢٧

---

(١) النساء : ١٥٨ .
(٢) طه : ١٢١ : ١٢٢ .
(٣) الاعراف : ٢٣ .
(٤) البقرة : ٣٧ .
(٥) الصف : ١٤ .

قصـــة المائدة ..

لقد تعمدت أن أتركها حتى أتناول جوانب حياة السيد المسيح والمائدة سميت باسمها سورة من سور القرآن ولم ترد فى غيرها من السور، طلب الحواريون من عيسى إنزالها من السماء تثبيتا لقلوبهم كمعجزة خاصة بهم وكان طلبهم فى لهجة لم يهذبها الدين بعد ﴿ **إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك إن ينزل علينا مائدة من السماء** ﴾ (١) لم يحددوا ألوان الطعام وإنما مائدة تلمسها أيديهم وتراها أعينهم وأمام قولهم (هل يستطيع ربك) نلمس الشك والتردد وعدم الثقة وهم يشبهون بنى إسرائيل حينما قالوا لموسى فى قصة البقرة (ادع لنا ربك) وأدبهم عيسى وألزمهم كلمة التقوى (قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) وأضاء عيسى القلوب بهذه الكلمات خوفا من سخط الله لقد قصدوا منها أموراً أربعة أن يتذوقوا الطعام فيكون لهم غذاء أبديا وأن تزداد قلوبهم ثقة واطمئنانا وأن يتأكد صدق عيسى فى كل ما أتى من معجزات وبذلك ينقلون للناس ما شاهدوا عن اقتناع ﴿ **قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين** ﴾ (٢) وهو قول يدل على إيمانهم بالله ووثوقهم فى عيسى ، ويتجه عيسى إلى ربه يسأله ويعلمهم أدب المخاطبة (ربنا) بدل (ربك) ولم يطلب المائدة التى وصفوها وإنما ترك الأمر لله ينزلها كيفما شاء وأنى أراد وكان عيسى معلما فعكس الطلبات قدم التقوى قبل المتعة بدأ الحواريون بذكر الطعام وبدأ هو بذكر النتيجة المترتبة على نزول المائدة واختتم بذكر الطعام وهذا فرق بين أدب الإنسان وأدب النبى ﴿ **قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين** ﴾ (٣) والمائدة نزلت وإن كان الله قد اشترط فى نزولها وهدد بعقاب صارم لمن يكذبها أو من يكفر بعد نزولها من الحواريين وربما كان الخطاب عاما لكل الناس ﴿ **قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين** ﴾ المائدة : ١١٥ . ونزلت المائدة واتخذها الحواريون عيدا وكل المؤمنين .

---

(١) المائدة : ١١٢ . المائدة : ١١٣ المائدة : ١١٤ .

عيسى يدافع عن نفسه

عيسى يدافع عن نفسه يوم القيامة : سيجمع الله الخلائق ويواجه كل أمة برسولها هل بلغ ويسمع ردهم وهو أعلم وكل رسول سيقر أنه بلغ رسالة ربه ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب** ﴾(١) فما كان لهم أن يدروا بما حدث بعد رحليهم أو بعد وفاتهم وإنما الله الذى يعلم ويأتى دور عيسى ويفاجأ بأمر حدث بعده ليس له فيه دخل إن الله يقرع قومه وهو يخاطبه هل سمحت لنفسك أو لأمك أن تنصبا إلهين معى ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله** ﴾ ولو كان عيسى حيا ماجرؤ أحد أن يقول هذا الكلام إنما جرى بعد رفعه وتبلغ الدهشة بعيسى مبلغها ويقرر أنه بلغ رسالة الله وأن ادعاء الألوهية ليس من حقه فالله منزه عن الشريك والشبيه﴿**قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق**﴾ويعترف أنه بلغ وإذا كان قال غير ما أوصاه الله فإن الله مطلع عليه يعلم السر وأخفى ﴿ **إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب** ﴾ (٢) لا ينازعك فى ذلك أحد ثم يقرر أنه أمرهم أن يعبدوا الله ربه وربهم تحت رقابة الله الذى أشهده على ذلك ﴿ **ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد** ﴾ (٣) وليس على الحساب وإنما على البلاغ وأشهد أنى بلغت كما أمرت وتركت لك محاسبتهم فإن شئت أن تعذبهم فهم عبادك وإن رحمت فإنك رحيم منيع الجانب حكيم الرأى ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ (٤) وهكذا غلبت على عيسى طبيعته الرحيمة ولكن الله لا يغفر لأناس اشركوا به ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ (٥) والرسول ﷺ يتشبه بعيسى يوم القيامة ويطلب الرحمة لأمته فقد روى البخارى عن ابن عباس قال (قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة .فقال (أيها الناس إنكم محشورون إلى الله

---

(١) المائدة : ١٠٩ . (٢) المائدة : ١١٦ . (٣) المائدة : ١١٧ .
(٤) المائدة : ١١٨ . (٥) النساء : ١١٦ .

عز وجل حفاة عراة ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ وأن أول الخلائق يكون يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء يوم القيامة برجل من أمتى فيؤخذ ذات الشمال فأقول أصحابى فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم) ...

وروى أن الرسول ﷺ قرأ (إن تعذبهم فإنهم عبادك) فرفع يديه إلى السماء فقال (اللهم أمتى) وبكى فقال الله (يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فاسأله ما يبكيه) فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله بما قال — وهو أعلم — فقال الله (يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك) .

وبعد أن قدم عيسى الحساب أعلن الله أن الجنة للصادقين ﴿ **قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ **المائدة : ١١٩** .

خاتمـــة : هذه قصة عيسى كما أوردها القرآن ﴿ **ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون** ﴾ (١) لم يكن ابن الله ولم يكن إلها وإنما هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴿ **ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ (٢) .

(تمت قصة المسيح عليه السلام)

عبد المعز خطاب

---

(١) ، (٢) مريم : ٣٥ ، ٣٦ .

أيها القارىء الكريم

لقد أكملنا بعون الله سير اثنى عشر رسولا فى كتابينا (مع رسل الله فى القرآن الكريم) ، (الصديق والمسيح عليهما السلام) وهم .

« نوح — هـود — صالح — إبراهيم — لوط — شعيب — يوسف — موسى — داود — سليمان — يونس — عيسى) عليهم السلام .

وإن شاء الله سنخصص للرسول المصطفى محمد بن عبد الله كتابا يليق بسيرته ملتزمين بما جاء فى القرآن الكريم وهذا يتطلب منا وقتا وجهدا حتى يكون العمل مرضيا .

وسيكون كتابنا القادم إن شاء الله (رحلة الآخرة فى القرآن الكريم) .

عبد المعز خطاب

* * *

فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٩/٩١٠٠

الترقيم الدولى ٤-٢٤٦-١٤٢-٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـــ ١١٢٣١

فى هذا الكتاب

- الصديق يوسف عليه السلام
- رؤيـــا يوسف ..
- تامر إخـــوته ..
- يوسف فى قصر العزيز ..
- قصـــة المراودة ..
- يوسف فى السجن
- المسيح عيسى بن مريم عليه السلام
- ولادة مريم ..
- مولد عيسى ..
- رسالتـــه .. و معجـــزاته ..
- قصـــة الصلب ..
- قصـــة المائدة ..
- عيسى يدافع عن نفسه